سامی فرید

سكن الليـــل

الناشر
دار جهاد للنشر والتوزيع
٢٠٠٢

سكن الليــل

الكتاب : **سكن الليل**
تأليف : **سامى فريد**
الناشر : **دار جهاد للنشر والتوزيع**
الطبعة : **الأولى ٢٠٠٢**
رقم الإيداع : **٩٦٤٢ /٢٠٠٢**
الترقيم الدولى : 977 - 5684 - 53 - 3 ISBN

الإهداء

إلى كل حفيدىّ مروان وكرز...

زهرتان لا تتوقفان عن نشر عطريهما في

حدائق خيالى بأطراف زحام الحياة

عصفوران لا يكفان عن الطيران والشقشقة

فوق أغصان شجرة العمر...

سامى

أفيق على هزة اليد ..
أدير عينى ببطء فيما
حولى.. وببطء أبدأ أفهم
كل شيء..

سكن الليل

سكن الليل!

ينقض الليل على قريتنا بمجرد أن يعطيها النهار ظهره..

يسقط على البيوت والناس والطرقات والحقول فيسكت كل شىء..

يتمرغ فى حضنها وينام فتكاد تسمع شخيره..

من بين كل الدور الساكتة تظل دار النبراوى بنورها المتسلل من النافذة تتحدى سطوته.. تسهر تنتظر عودة الصبح.

نلتف حول الطبلية.. تكركر الجوزة بيننا.. تنتقل من فم إلى فم.. يدور دخانها حولنا فيجعل للمساء مذاقا خاصا لا يعرفه غيرنا.. تطرقع أوراق الكوتشينة وترتفع صرخات الفوز وآهات الهزيمة بينما تلعلع فى الراديو أغنية حزينة.

- العب..

- لا نفس لى اللعب..

استند إلى الطبلية وأقف، أعطيهم ظهرى وافتح الباب، أواجه بصدرى لفحات الهواء من الخارج.

يأتينى الصوت:

- إلى أين ؟

- أفك حصر..

وأخرج..

على حافة سور الجسر أجلس.. أصوات السيارات المسرعة على أسفلت الطريق البعيد تحمل إلى رائحة حياة قريبة.. تلمع وسط الظلام أنوار السيارات وتنطفىء..

يشتد هبوب الهواء البارد فأعطيه ظهرى.. ارفع ياقة جاكتتى وأنكس رأسى داخلها..

ادس كفى فى حجرى وانتظر..

تقترب الخطوات منى..

لا أرفع رأسى..

اسمع تحيته..

أرد ببطء..

يسألنى إن كنت انتظر أحدا..

أرد ساخرا قائلا إننى انتظر طلوع الصبح..

يتفرس فى وجهى ثم يمضى مغمغما..

أحلم بالنبراوى ومتولى وحنفى، بهم جميعا يقفون صفا أمامى فى غرفة الكشف بالمستشفى الأميرى والتومرجى يناديهم فيتقدمون واحدا واحدا لتوقيع الكشف عليهم.. آمرهم فيصعدون إلى طاولة الكشف.. أشير إليهم فيعرون أجسادهم المريضة. أضع سماعتى على عظامهم النائتة وجلودهم الخشنة.

اسمع تنفسهم فأعرف موضع العلة. أشير فينزلون.. خوفهم يمنعهم من الكلام.. اكتب فى الورق أمامى كلاما لا يفهمونه .. ادفعه إليه فينصرفون شاكرين.

يتلفت النبراوى خلفه قبل أن يخرج، يلقى على نظرة طويلة أعرفها واتجاهلها وتخايلنى من بعيد فى الضوء الخافت عينا امرأته تزحفان فوق وجهى الساخن فى رغبة أكيدة، بينما اسمع فى الداخل سعلاته المكتومة فوق الوسادة الكالحة.

تتقدم هى وسط هالة الضوء جميلة كالملاك افتح لها ذراعى تنكس عينيها فى الأرض خجلا ارفع وجهها نحوى.. تنظر فى عينى لحظة ثم تسقطهما فى صدرى فأضمها ويفوح عطرها يعربد داخلى..

أطفىء ضوء المصباح وأغلق الكتاب..

أمدد ساقى متعبا وأعقد ذراعى خلف رأسى مغمضا عينى أحاول أن استريح وأحس بنفسى تنزلق رويداً رويداً وببطء ثم تسكن..

أفيق على هزة اليد ادير عينى ببطء فيما حولى، وببطء أبدأ أفهم كل شىء..

اسمع الصوت يسألنى هل ستنام هنا؟

أهز رأسى نفيا وانهض اهبط من فوق الجسر عائدا إلى القرية..

يمتد ظلى أمامى طويلا يسبقنى إليها وقد بدأ نور الصبح الطالع يسرح فوق ظهرى..

.. وماذا عساى أفعل
لو لم أجد أحداً هناك
أيضاً ؟!

غربىّ النيل

غربى النيل

تراجعت للخلف أنظر إلى أعلى ومازال التراب يتساقط..

لا أحد فوق..

كان التراب يتساقط فوق رأسى من الشقوق التى ضربت واجهة البيت.. هززت الباب للمرة الأخيرة وحاولت نزع العارضة الخشبية المثبتة بالمسامير الصدئة.. نفضت التراب من كفى وقال صوت عبر من خلفى كالطيف: احترس فالبيت آيل للسقوط!

التفت بسرعة فلم أجد أحدا!

كان الطريق خاليا على غير عادته وقد أدهشنى هذا كثيرا.. قلت فى نفسى: سأذهب إليهم فربما كانوا هناك فى البيت الجديد ومضيت أقطع الطريق فى فتور غريب وقد حيرنى كثيرا أن أحدا لم يعد يعرفنى هنا ولم يخبرنى مخلوق بما آل إليه حال بيتنا القديم وتساءلت بينى وبين نفسى فيما يمكن أن يكون قد حدث للسكان وفى ذهنى وجهها وقد أطلت من الشرفة العلوية مبتسمة كعادتها فيما هى تدلى السلة الفارغة مائلة فوق السور الحديدى الناعم يصدرها المفعم بأشواق اللقاء.. ولمعت فى نور

الشمس أساورها الذهبية وهى تسحب الحبل بالسلة الممتلئة فتشرق من بين شفتيها ابتسامة أعرف أنها لى وحدى ومن حولى تطن العطفة بأصوات الحياة كعادتها فى كل صباح..

رأيته..

كان واقفا فى عتمة المدخل فخمنت أنه ربما كان ينتظرها بعدما تأكد من غيابى.. فكرت أن أسأله.. ترددت قائلا لنفسى وما جدوى السؤال إن كانت قد تركت المكان مؤملا ألا تعود فيطول انتظاره حتى أجدها أنا وهو ما أفعله الآن..

لم يكن اليوم حارا ولم أستطع أن أحدد فى أى ساعة نحن من النهار، مرت نسمة خفيفة سمعت معها صوتها المرحب يقول: أهلا..

كنت أعرف الصوت لكنه لم يكن صوتها الطفل الذى ترجه الفرحة كلما تكلمت والذى استقر فى سمعى منذ التقينا على السلم أول مرة.. كان صوت امرأة تتفجر نضجا بعدما فات من السنين منذ التقينا آخر مرة لكن صوتها ظل يحمل فى نبراته بعض ملامح الصوت المعابث القديم الذى مازلت أحبه.

ألتفت خلفى بشدة ودرت بسرعة حول نفسى غير مبال بالنظرات التى كنت موقنا أنها تراقبنى كدأبها من فرجات خشب النوافذ وفتحات الأبواب كلما التقينا، وسرحت أصابعى تبحث عن أصابعها فى عتمات الحوارى لكنهم كانوا دوما يحبسون أنفاسهم خلف النوافذ فلا أسمعهم.. درت مع انحناءة البناية فى نهاية الشارع الكبير إلى اليمين فخايلنى وجهها

من بعيد. أسرعت خلفها أناديها فاستدارت نحوى.. كان وجهها حزينا دون شكوى وقد نكست عينيها بأهدابها الطويلة إلى الأرض محاذرة أن تلتقى عيناى بهما، سألت نفسى إن كانت تلك دموع التى رأيتها تلمع فى عينيها؟!

اختفى وجهها فجأة فرحت افتش فى مداخل البيوت المعتمة الباردة عنها وعنه علنى أجدهما معا فلم أجد سوى بيوت غادرتها أنفاس الحياة وعشش فيها فحيح الصمت الموحش لكنه كان كما تركته واقفا وحيدا فى نفس المكان الذى اعتاد انتظارها فيه.

كانت الشمس تنسحب مبتعدة فى هدوء من لا يعنيه الأمر فى شىء.. اشتد تكاثف الظلال واقترب الظلام متسللا من جهة الشرق أكاد اسمع هسيسه، خرجت مسرعا إلى رحبة السوق القديم دون أن التفت إلى الشارع من خلفى وقد قررت أن أعبر السوق دون أن أدور حولها ككل مرة مختصرا المسافة إلى بيتهم هناك غربى النيل..

مررت مسرعا بجوار باعة العيش وتجار البهائم ومن تبقى من باعة الخضر والخردة الذين راحوا صامتين يجمعون أشلاء بضاعتهم فى الأجولة المتسخة، صعدت الطريق الترابى المرتفع كالتل فى نهاية السوق ودرت معه محاذرا السقوط فى الشقوق العميقة التى خلفها وراءه مشروع الصرف القديم وسكنتها مياه الأمطار والعطن، كان الطريق مختلفا لم أعرفه رغم كثرة ما قطعته خلال سنوات ذهابى إلى المدرسة وعودتى منها. اختفت بعض البيوت التى أعرفها وانفتحت مكانها مساحات من البرك والخرابات وبعض الأكواخ التى راح الدخان يتصاعد منها ملتويا يدور مع الهواء مع ما

تبقى من نور النهار الذاهب وقد بدأت ألاحظ أن الطريق لا يزال يرتفع كلما أمعنت فى السير حتى بدت الناس والأشياء فى الأسفل نقاطا صغيرة متناثرة فابتعدت بسرعة متراجعاً عن حافة الطريق وقد تملكتنى الرهبة من السقوط مؤثرا الارتداد إلى الداخل مقتربا من أرض البرك سائرا على حوافها اتنفس عطنها مجتهدا أن انتهى من الطريق قبل أن يكبسنى الظلام.

انتهى الطريق فجأة فوق جرف مرتفع كانت حفائر الآثار قد وضعت لافتاتها فوقه محذرة من الاقتراب منه معلنة عن اكتشاف مدرج رومانى قديم بانت درجاته الحجرية المتآكلة وقد انتظمت فى صفوف شكلت صحناً عميقا هابطا إلى الأسفل، ترددت لحظة فى الهبوط فوق الدرجات المتآكلة التى انتصبت فيما يشبه الزاوية القائمة بشكل خشيت معه السقوط فأثرت العودة من نفس الطريق إلى السوق، وقد قررت أن أخرج من المكان كله إلى شارع النيل بأعمدته التى لابد أنها تضىء الآن فيلمع وهج مصابيحها فوق صفحة الماء المرتعشة دوما.

•••

كان جسده المسجى فوق تراب الطريق يبدو كومة سوداء بلا ملامح لا أدرى من أين أتت فكدت أتعثر فيه. صرخ فى سكون الظلام.. الوباء.. سيأكلكم الوباء.. سيدخل بيوتكم.. قلت هذا أكثر من مرة فى دراساتى وأبحاثى فى جامعات الدنيا وكتبت فى صحفكم فلم تكترثوا.. اشربوا من الكأس الآن مثلما شربته أنا وكنت أول الضحايا.

هرولت مبتعدا وقد تملكنى رعب شديد وتمنيت أن أصحو من هذا

الذى تخيلته فى تلك اللحظة كابوسا. ضحك فى وهن ثم راح يسعل صارخا من خلفى: لن تفلتوا.. لن تفلتوا!!

كنت لا أزال اسمع سعلاته فيما أنا أسرع مبتعدا أهبط المنحدر إلى أرض السوق التى خلت الآن تماما فى حين أضاءت قناديلها بعض الدكاكين الرثة التى تلتف حول السوق من بعيد وراحت ذؤابات فتائلها ترتعش مع هبات نسيم الليل البارد فيتماوج مع النسيم دخانها الأسود مخلفا فى المكان رائحة الكيروسين المحترق.

كان الظلام يرقد فوق المدينة وقد ضم فى حضنه أرض السوق والدكاكين إلا ما تناثر هنا وهناك من بعض أضواء القناديل المرتعشة فى وهن.

درت حول أرض السوق قائلا لنفسى إنه ربما كان الطريق الأطول أكثر أمنا مادمت أعرفه. كانت برودة التراب الناعم تتسلل إلى أصابعى داخلة من ثقوب الحذاء فلا أعبأ بها مثبتا عينى على الأضواء التى كانت تلمع من بعيد وقد قررت أن أصل إليها مهما طال الطريق رغم كل ما سمعته عن ثعابين الحقول التى تعبر الطريق والجرذان التى تهرب أمامها قافزة من حقل إلى حقل وفى أذنى صوت نقيق الضفادع وجنادب الزروع ووشوشات مياه الترعة عند احتكاكها بطين الضفتين فيزداد إحساسى بالوحشة والخوف.

فوق جبهتى ورقبتى راح العرق البارد يتكاثر فيما امتزج تراب الطريق الناعم بالعرق بين أصابع قدمى ومازالت الأضواء البعيدة لا تريد أن تقترب.

توقفت ألتقط أنفاسى وأمسح عرقى متلفتا حولى فى بطء لأتأكد من الطريق وأحدد موقعى عليه، كان طريق السيارات السريع إلى يمينى واضحا بما يؤكد أنه قريب وقد بدأت الآن اسمع هدير السيارات التى تجرى فوقه فتصورت شكل الحياة هناك والركاب الوادعون داخل كبائن السيارات وعربات النقل بما تحمله فوقها من بضاعة تعرف طريقها إلى أصحابها.

كانت بعض أعمدة الإنارة قد أرسلت ضوءها هناك فقررت أن أعدل اتجاهى إليه ومع اقترابى تأكد لى أن الطريق يعبر أحد الكبارى العلوية التى تمر فوق الأراضى الزراعية ولم يكن أمامى الآن إلا أن أبحث عن أحد المطالع إلى الكوبرى عازما على السير بمحاذاته دون أن اكترث فى أى الاتجاهين أسير فالمهم أن أعثر على المطلع، كان صوت هدير المحركات واحتكاك الإطارات فوق أسفلت الكوبرى يزداد ويعلو كالطنين فأشعر بالأمان ويزداد يقينى أننى أقترب من دفء الحياة الحقيقية وقد ملأتنى أمنية أن يلتف الكوبرى فيعبر بى إلى الغرب.

من بعيد لاح مطلع الكوبرى وبدت لعينى بوضوح درجات السلم الأسمنتية الصاعدة إليه فابتسمت فى راحة ورفعت طرف قميصى أمسح به العرق عن وجههى ورقبتى.

فى شلال أضواء مصابيح السيارات المارقة وقفت أشير وقد راح ينفتح أمامى السؤال من جديد: وماذا عساى أفعل لو لم أجد أحدا هناك أيضا؟!

أسرعت أمد يدى أمسك
كفها.. سحبت كفها
بسرعة.. لم أفهم.. كان
وجهها غريبا لا أعرفه !!

فى نهر الشارع!

فى نهر الشارع!

يرفع المسجد مئذنته نحو السماء فى ضراعة صامتة.. على زاوية الرصيف أجلس موليا المقهى ظهرى.. أضع ساقا فوق ساق منتظرا فنجان القهوة المضبوط وكوب الماء.. فى الجو نسمة باردة والحياة من حولى تذهب وتجيء فى صخب يحمل إلى أنفى روائح المغات والزنجبيل وعروق القرفة الخشبية.. يغلق تاجر المسابح دكانه الصغير ويعرج على دكان المسمط الملاصق يتبادل كلمتين مع الرجل خلف المنضدة وراء زجاج الباب ثم يشير إلى ابنته المنتظرة بعيدا فتنزل من فوق الرصيف متجهة نحوه.. ينعطفان فى الدرب المفضى إلى النحاسين.. يبتلعهما الزحام والظلام البعيد..

تماما كما وصفت.. كان مدخل البيت مظلما ورطبا.. أما السلم فكان إلى اليسار.. فى حوش السلم دكة خشبية قديمة مفروش عليها كليم قديم من بعض قطع القماش مختلفة الألوان.. كان درابزين السلم الخشبى متهالكا يكاد يسقط.

فى المدخل وقفت فانطرح ظلى طويلا داخل الحوش.. خلفى على البعد كانت أنوار الشارع وبعض مصابيح المحلات التى كانت تتأهب

للإغلاق.. تراجعت بظهرى خطوتين انظر إلى شرفتها. بصيص من النور المتراقص كان يروح ويجيء من خلال فرجة ضلفتي الشيش المواربتين في صدري كان قلبي يدق بشدة.. هل ستنزل أم تراها نسيت أو انشغلت؟

نظرت في الظلام إلى الساعة في يدى.. مجرد عادة بلا معنى في ذلك الظلام الرطب المشحون بالتوتر.. وكأنني سمعت صوت أقدام تقترب من الباب العلوى في نهاية السلم.. أسرعت متراجعا إلى ظلام الحارة بينما كان قلبي يكاد يقفز من صدري.. أطلت بقوامها الملفوف في مدخل البيت.. نظرت يمينا ويسارا ثم أحكمت ملاءتها ومضت بخطوات ثابتة نحو الميدان الواسع.. هبت نسمة باردة فدسست كفي في جيب بنطلوني ومضيت خلفها.. كانت تعبر من أمام محل أبيها المغلق.. استدارت تنظر خلفها.. أسرعت أمدّ يدى أمسك كفها.. سحبت كفها بسرعة.. لم أفهم.. تقدمت أمسك ذراعها بقوة.

صرخت

توقفت الحياة في الميدان وصعد الدم سريعا إلى رأسي..

التفتت نحوى بشدة..

كان وجهها غريبا لا أعرفه..

في الأفق البعيد كان هناك صوت أنين حزين يأتيني متماوجا مع أصوات فرحة مغادرة كانت ترفرف بعيدا.. أنزلت ساقى وصفقت للجرسون.. وضعت ورقة العملة تحت الفنجان ونزلت أسير بين الناس في نهر الشارع بينما كانت الحياة من حولى لاتزال تأتي وتروح في صخب لا يبالي!!

اشتعل غضب السلطان
من حماقة قاضى قضاته
فقال: بدون تهمة.. لأننى
هـكذا قلت!

نور الصباح..

نور الصباح..

حين أنشب الليل مخالبه فى جسم بلدنا كان السلطان قد فرغ من عشائه.. فرك كفيه مبتسما.. ربت فوق كرشه وتجشأ ثم نادى يطلب الحلوى.

عبرت فتاة فى ريق شبابها الشارع خافت الإضاءة داخله إلى حارتها المظلمة.. تلفتت حولها بسرعة ثم فتحت بابا أسرعت بإغلاقه خلفها.. انسحبت عينا الرجل الذى كان يتبعها ثم استدار عائدا يخبط جلبابه بخيزرانة رفيعة كانت فى يده.

وقف الحاجب أمام السلطان محنى الرأس فى خشوع.. رفع رأسه فيما كان السلطان يقذف بقطعة من الحلوى فى فمه. قال الحاجب مستأذنا فى خشوع: الصلاة يا مولاى!

لكن السلطان لم يرد.. كرر الحاجب سؤاله فأشاح السلطان بيده فى زهق..

تنحنح الحاجب قائلا: الكل ينتظرون مولاى! رد السلطان بصوت غاضب: ملعونون! ألا ترى أننى لم أنته بعد من تناول عشائى.

قال الحاجب معتذرا وهو ينسحب خارجا وظهره للحائط: عفوك يا مولاى.. عفوك.. ثم انحنى رافعا كفيه بالتحية حتى اختفى خارج القاعة.

صفق السلطان فدخلت جاريتان راحتا ترفعان صوانى الطعام من أمامه، صفق مرة أخرى فدخل رئيس الحرس متجهم الوجه كعادته، أشار له السلطان ليقترب، انحنى رئيس الحرس مرتكزا بركبته على رخام القاعة.. قال السلطان وقد امتلأ وجهه قسوة: أريد قائد جيوشى حالا.. الآن!

من بوابة القصر الشرقية انطلق أسرع الجياد يحمل رسول السلطان إلى قائد الجيوش على الجبهة، عند فجر اليوم الثالث كان الجواد والرسول قد أشرفا على الموت بعد سفر متصل فيما كان الفجر على الجبهة قد بدأ يسترد عافيته بعد صراع مرير استمر الليل بطوله مع الظلام..

قال الرسول وهو يحاول أن يستجمع أنفاسه: إن السلطان يريد القائد حالا.. الآن!

ألقى القائد نظرة طويلة إلى الأفق أمامه مستعرضا مواقع الأعداء متحسبا لليوم الذى يجمعون فيه قواتهم للهجوم الذى يتوقعه وعاش عمره ينتظره..

كان نسيم الفجر البارد يلفح وجه القائد فيما هو يطير بجواده عائدا إلى المدينة..

نخس القائد جواده مستحثا ونفسه تحدثه بأن السلطان لابد يتعجل نهايته..

بخطاه الواثقة مضى القائد يدب عبر ردهات القصر وممراته والرسول من خلفه يلهث.. فى القاعة أمام السلطان انحنى القائد يقدم التحية.. وضع سيفه بين يدى مولاه علامة على الولاء قائلا: لبيك يا مولاى.

ابتسم السلطان راضيا ثم قال مضيّقا ما بين عينيه متخذا سمت الاهتمام: أين يا قائد جيوشى ما طلبته منك؟

قال القائد فى ثقة حازمة: قواتنا على أتم الاستعداد يامولاى وقد استكملت..

قاطعه السلطان متبرما: ما لهذا أردتك!!

دهش القائد كأنه صدم وبدا أنه يحاول أن يتذكر..

عاجله السلطان: هل نسيت يا رجل؟

أضاف وهو يغمز بعينه: تلك البنت يا ولد!

أشار بكفيه إشارة بدت للقائد شديدة البذاءة، ثم قال مستطردا: التى أشرت إليها يوم استعراض القوات المسافرة للجبهة وهززت أنت رأسك منتشيا بفتنتها!

بوغت القائد:

قال مدافعا عن نفسه: أنا يا مولاى؟!

نظر إليه السلطان مستنكرا.

واصل القائد: كنت أظن مولاى يشير إلى عربات الحرب وهى تمر من أمامه!!

قال السلطان بوقاحة لم يشأ أن يداريها: بل كنت أنظر إلى مدافعها التى تطلقها نحوى!!

فاجأه القائد فى اندهاش حقيقى: ولماذا أنا يا مولاى؟!

قال السلطان فى مسكنة مصطنعة: الوزير يرفض ويداورنى ورئيس الحرس يدعى أنه لا يعرفها والحاجب قصير النظر كما تعلم..

أضاف يستحثه: أنت الوحيد الذى رأيتها وتعرفها وتستطيع أن تفوز برضاء مولاك!!

•••

كانت تعلم أن العيون تتابعها.. أدركت هذا منذ تلك الوخزة كطعنة الخنجر فى ظهرها.. كانت الطعنات تلاحقها كلما خرجت إلى الطريق.. الشوارع لم تعد آمنة.. الخناجر تحولت إلى أكف شرهة لاهثة وأصابع ساخنة مرتعشة بالشهوة تتحسس ظهرها.. لا تستطيع أن تتوقف لتلتفت خلفها.. لا تستطيع أن تعدو الطريق كله.. هل يعنى هذا أن تقعد حبيسة دارها؟ تساءلت!!

ستخرج وتواجه وتضرب تلك الأيدى حتى وإن كانت لا تراها.. يكفى أن يعرفوا أنها تعرفهم بل وأكثر.. أنها تراهم!!

•••

قال القائد وهو ينحنى ليلتقط سيفه من تحت أقدام السلطان:

لكننا لا نعرف من هى يا مولاى.

أشاح السلطان بيده فى وجهه قائلا: أنا أعرف عنها كل شىء وهذا يكفينى.. عيونى تلاحقها فى كل مكان تذهب إليه.

أضاف آمراً ومتوسلا فى نفس واحد: أريدها يا رجل.. أريدها ولو لليلة واحدة ثم أطلقوا سراحها بعد هذا.. ماذا يمنع ؟!

قال القائد فى نفسه: أشياء كثيرة تمنع مستحيل أن تعرفها!!

صفق السلطان مستحثا: هيا.. هيا!

انحنى القائد خارجا وهو يؤدى التحية.. كان ذهنه مشغولا بما آل إليه حال سلطان البلاد.

فى غرفة داخلية خافتة الإضاءة قليلة الأثاث جلس القائد فوق مقعد قديم، كان الظلام فى الخارج ممعناً فى الحلكة وقد كمم السكوت كل الأصوات.

قال القائد هامسا وقد مال بكل جسمه إلى الأمام: عملى يا ابنتى أن أحميكم فلا تخافى. أشار إليها لتقترب. قال بصوت أكثر انخفاضا: ستذهبين إليه فى القصر حيث أراكما من مكان قريب.

اعتدلت البنت ثم رفعت صوتها قائلة: اسمع.. إن كان يريدنى فليأت إلى هنا ليأخذنى أما غير هذا..

قال القائد وقد فاجأته كلماتها: لكنه السلطان يا ابنتى.. من يجرؤ؟!

قالت تنهى كلامها: ليس عندى كلام غير ما قلت!

قلب القائد كفيه يائسا ثم نهض منصرفاً وقد أحس بخوفه على البنت يتزايد تماما كخوفه على جنوده الذين تركهم هناك..

•••

السلطان لا يذهب إلى الحوارى!!

صرخ السلطان فى وجه القائد..

قال القائد وهو يكتم غيظه: هذا يا مولاى كلامها والأمر فى النهاية أمركم.

راح السلطان يتمشى فى قاعة العرش مفكراً..

التفت فجأةوقال: سأذهب ولكن دون أن يرانى مخلوق!!

فكر السلطان فى نفسه أنها مغامرة مثيرة تخلعه من رتابة حياته المملة الضجرة.

كان القائد يقف منتظرا أوامر السلطان وقد استبد به القلق على حال جنوده الذين يتوقعون هجوم أعدائهم فى أى لحظة وفكر أنه ربما يشن الأعداء هجومهم الآن لو علموا بغيابه.

توقف السلطان عن المشى فى القاعة ثم استدار مشيرا إلى القائد قائلا: أنت.. دبر لىّ هذا الأمر!

تحسس القائد مقبض سيفه وقد استبد به الإحساس بالإهانة لكنه قبض على آخر ماتبقى له من صبر قائلا بابتسامة كأنها إنذار الموت: أنا يا مولاى؟!

رد السلطان دونما اكتراث: نعم.. أنت.. ومن غيرك؟!

•••

في ستر الليل كان شبحان يخترقان حوارى المدينة التى أغمضت عيونها مطمئنة.. فالجنود هناك على الجبهة يحرسون سلامتها من أعدائها.. والسلطان هنا يرعى العدل بين الرعية.

أمام البيت وقف السلطان وقائده ينتظران أن يفتح الباب..

أشار السلطان للقائد أن يدق الباب مرة أخرى.. أضاءت نافذة علوية أطلت منها البنت وقد غطت رأسها وجزءا من وجهها بوشاح رقيق.

قالت تسأل: من ذا الذى يجرؤ فى هذا الليل على دق أبواب الناس المطمئنين إلى عدل السلطان وشجاعة قائده وقوة جيشه؟!

غمز السلطان قائده ليتكلم..

قال القائد: أنا يا بنتى.. ثم تراجع إلى دائرة الضوء الساقط من نافذة البنت كاشفا عن وجهه حتى تراه.

قالت البنت وقد تبينت شخصيته: ومن هذا الذى معك؟ أحد جنودك وحرسك؟!

أحس القائد بالحرج والحيرة.. قال بصوت خفيض: إنه هو يا ابنتى..

ثم أضاف بصوت كأنه الهمس: إنه السلطان يا ابنتى.. السلطان!!

صاحت البنت كمن فوجئت: بنفسه؟!

هش ش ش.. أشار إليها القائد لتخفض صوتها وفكر فى تلك اللحظة أنه ربما كان من الأفضل أن يجهز بسيفه فى ضربة واحدة على هذا السلطان الذى يجره معه إلى هذا الموقف الذى يراه غريبا عليه وبعيداً كل

البعد عن عمله الذى خلق له لكنه راح يحسب الحسابات المعقدة التى ستعقب مقتل السلطان.

بسرعة فكر فيما سيفعله الأعداء لو علموا بالخبر.. وبالناس ماذا سيقول لهم.. ومن سيخلف السلطان.. بل ربما تجر حادثة كهذه البلاد إلى الفوضى والصراع على السلطة.

رفع قبضته عن مقبض سيفه قائلا بصوت مختنق: جئناك كالاتفاق.. ثم أضاف فيما يشبه التوسل: ألم تقولى أنت يا ابنتى إن السلطان إذا أرادك فعليه أن يأتى هو إليك.. ثم بسط كفيه أمامه: وها هو قد أتى إليك فماذا قلت؟!

قالت الفتاة موجهة كلامها إلى السلطان: اسمع أيها السلطان.. إن كنت تريدنى زوجة لك لأصبح سلطانة على هذه البلاد فهيا.. اطلبنى من قائدك فقد فوضته الآن فى أمر كهذا وهو وكيلى.. هيا اخطبنى منه إن كنت صادق النية!!

أضافت وهى تسدل الستر على نافذتها: أما إن كان غير هذا فانصرف من هنا فورا وإلا صرخت لأعلن لكل المدينة من أنت وماذا تفعل هنا!!

غطى ظلام الليل الحارة إلا من بعض ثقوب مضيئة ظلت تقاوم حلكته هنا وهناك.. حك السلطان لحيته وقد اسقط فى يده..

«اللئيمة»! قال السلطان فى نفسه.. سأنتزعها من هنا انتزاعا لتكون جاريتى وملك يدى هذه.. رفع قبضته فومض بريق الحجر الضخم فى

خاتمه. التفت القائد نحوه يسأله ما العمل؟ همس السلطان بصوت كفحيح الثعبان: خرج الأمر من يدك الآن وأصبح فى يد رئيس الشرطة.

انفرجت الستارة فى النافذة العلوية مرة ثانية فعادت بقعة الضوء تفرش مستطيلاً واسعاً على بلاط الحارة.. رفع السلطان ذراعه يحمى عينيه من هجمة الضوء. قالت البنت وهى تضغط على حروف كلماتها: إن كنت تريد أن تأخذنى عنوة فأعلم أنك لن تنال منى إلا جسدا ميتا، أسدلت سترها فعاد الظلام يتنفس فى الحارة من جديد.

تسلق السلطان صهوة جواده وراح ينهب طرقات المدينة الخالية عائدا إلى قصره ومن خلفه قائده يحاول اللحاق به فوق جواده مقتحما رياح الليل التى كانت تكنس ما أمامها مصفرة فى زوايا البيوت وحنيات الدكاكين دائرة تلف حول المآذن وقباب المساجد داخلة من فتحات النوافذ وفرجات الأبواب تنتظر أن تسكتها شمس الصباح التى كانت تتقدم من الشرق فى إصرار وثبات.

انفتحت بوابات القصر واحدة وراء الأخرى أمام السلطان العائد فى سكون الليل المحتضر..

فى غرفة العرش القى السلطان بنفسه على سرير ملكه وقد ركبه إحساس بالهزيمة.. خلع عمامته ليهرش رأسه فبدت رأسه صغيرة جدا لاتليق بسلطان وبدت رقبته نحيلة تغرى بقطعها.

وقف القائد أمام سلطانه ينتظر الإذن له بالعودة إلى جنوده. أشار له السلطان فى ضيق أن ينصرف.

انحنى القائد يؤدى التحية خارجا إلى حيث انطلق بجواده يسابق الريح إلى جبهة القتال التى يعلم أنها يمكن أن تشتعل فى أى لحظة.

•••

عندما جاء رسول السلطان إلى رئيس الشرطة كان الرجل مشغولا بكتابة تقريره عن الأمن الذى استتب فى البلاد بعدل وحكمة مولاه السطان وعن تراجع الجريمة واختفاء المخدرات وانتهاء السرقات..

وقف رئيس الشرطة يراجع تقريره ويقرأه بصوت مرتفع ويضبط هجاء بعض كلماته قبل أن يقرأه أمام المجلس البلدى الذى سيشرفه السلطان ووزرائه وكبار رجال السلطنة فى عيد جلوس سلطان البلاد.

سأل رئيس الشرطة الرسول مستريبا لماذا يريده السلطان؟! هز الرسول رأسه ينفى علمه بالسبب.. فك رئيس الشرطة قبضته عن رقبة الرسول مبتسما وهو يربت فوق ظهره ثم سحب عباءته ليضعها فوق كتفيه ومضى خارجا يتبعه الرسول إلى القصر.

كان الليل يودع المدينة على وعد بعودة ثانية.. صفق السلطان طالبا من جميع من كانوا فى القاعة الخروج.. ارتجف شىء فى صدر رئيس الشرطة وتوقع الخطر.. دارت عيناه بسرعة تمسحان المكان.. أشار إليه السلطان ليقترب.. اقترب الرجل ومازالت أنفاسه تتسارع ودقات قلبه تكاد ترن فى صمت القاعة..

•••

عند ظهر اليوم التالى كانت البنت تجلس إلى إحدى الموائد فى ركن من المطعم المشهور بوسط المدينة.. على نفس المقعد الذى أمروها أن تجلس عليه، كانت الأمور من حولها تسير بشكل طبيعى لولا إحساسها أنها محاطة بعشرات العيون تراقبها وترصد حركاتها.. من خلفها جاء. أحست به. اقتحمتها رائحته. دار حولها ثم جلس أمامها.

هذا هو السلطان إذن!!..

تفرست فى ملامحه. كان فاتح البشرة.. كثيف شعر الحاجبين.. مدبب الذقن. تساءلت بينها وبين نفسها: أتراه قد حلق لحيته؟! وماذا يهم؟! ها هى تسمع صوته لأول مرة.. بدا لها أنه يتكلم من قاع بئر سحيقة. قال مرحبا: أرأيت.. قد أضاء المكان بك.. ما هكذا رأيت هذا المكان قبل اليوم! فهمت من كلامه أن يرتاد المكان كثيرا وباغتها السؤال مرة أخرى! أيحلق لحيته فى كل مرة؟ أم تراها لحية مصنوعة؟!.. قالت لنفسها إن هذا شىء لا يهم ثم تراجعت تردد فى نفسها: بل هو شىء شديد الأهمية!!

تكلمى.. أشار إليها السلطان.. قولى شيئا.. أريد أن اسمع صوتك.

قالت بصوت مهموس خضبه الخوف ولونته الدهشة يحيرنى يا مولاى أننى لست أعرف ماذا بالضبط تريد منى.. يحيرنى أيضا أننى أعلم أنك تمتلك مئات الجوارى من كل بلاد الأرض شقراوات وسمراوات.. لماذا أنا تحديدا يا مولاى.. لماذا؟!

ضيقّ السلطان ما بين عينيه قائلا وهو يدق بسبابته على رخام المنضدة

ضاغطا على كل حرف: لأنك منهم.. من هؤلاء الناس الذين يحيطون بنا ويدورون من حولنا فى الشوارع.. والذين يجلسون على المقاهى يدخنون الأراجيل أو على الأرصفة يبيعون أرغفة العيش.. أنت من هؤلاء الذين يخوضون فى الوحل فى حقولهم يقلبون عيدان النبات أو يمشون خلف محاريثهم يشقون بطن الأرض السوداء.. أضاف بابتسامة رأتها ميتة: وفى كتبنا القديمة وكما ينصحنى دائما حكماء قصرى ومستشارى المملكة أن مثلك إن خضعت لسلطانى خضع الشعب كله لسلطانى وإن باتت فى حضنى بات الشعب كله فى حضنى..

أشار بيده كمن يطرد فكرة تهوم حوله: ثم لماذا تنادينى هنا يا مولاى؟

بصوت بدا كالحشرجة قال وابتسامة لزجة تتدلى من شفتيه مشرفة على السقوط: هنا أنا واحد منكم.. انظرى إلى قميصى.. ألا تعجبك ألوانه؟!.. تماما كما يلبس شبابكم بنين وبنات..

مسح فوق لمعة شعره الأسود الكثيف مواصلا: وهذا شعرى.. ألا يعجبك؟! نادنى هنا ميمى بدلا من مولاى.. أنا ميمى مثلما تنادون بعضكم بعضا عند التدليل.. أو قولى سوسو بدلا من سلطان.. أليس هذا بديعا؟!

أضاف وقد تغيرت نبرة صوته إلى قسوة أفزعتها: أما فى القصر فأنا مولاك.. مولاكم جميعا.. مفهوم!!

هبت البنت واقفة ثم انطلقت خارجة بسرعة أربكت السلطان الذى وقف حائرا لا يدرى ماذا يفعل وقد أحس أن شيئا داخله كان صلبا يشرف الآن على الانكسار.. دس يده فى جيبه ثم أخرج بضع ورقات مالية وضعها

أمامه على المنضدة ثم تبعها خارجا يتلفت باحثا عنها.. لكن البنت كانت قد ذابت في زحام الناس..

•••

في قاعة عرشه جلس السلطان في المساء مهموما يفكر.. عند قدميه جلس قاضي القضاة الذى استدعى من بيته على عجل ينتظر الأوامر. بسط السلطان إحدى ساقيه حتى كادت تلامس ذقن قاضي القضاة الذى رفع رأسه من تحت عمامته الكبيرة ناظرا لى شفتي مولاه. قال السلطان بلهجة آمرة: اكتب أمراً الآن بالقبض على بنت اسمها نورالصباح والقائها في السجن تمهيدا لتنفيذ حكم الإعدام فيها صباح الغد فى ساحة القلعة.

تحسس قاضي القضاة لحيته برهة مفكرا ثم قال: وبأى تهمة يا مولاى؟!

اشتعل غضب السلطان من حماقة قاضي قضائه فقال: بدون تهمة.. لأننى هكذا قلت!

- لكن يا مولاى!

- بدون.. لكن!

أحس قاضي القضاة بالإهانة وبأن رأسه لم تعد تحتمل ثقل العمامة فوقها وأن شيئا كالنار يسرح تحت جلده. وقال: أمر كهذا يا مولانا لا يحتاج إلى قاضي القضاة.. يكفيك أن تمليه على كاتبك ليدفع به إلى الموكلين بتنفيذه.. ابتلع ريقه ثم أردف: أما قاضي القضاة، فلا يحكم إلا بالشرع والقانون.

- أحمق!!

ابتلع قاضى القضاة الإهانة قائلا فيما هو يؤدى تحية الانصراف: فليأذن لى مولاى.

استدار السلطان يوليه ظهره وقد استشاط غضبا.

صرخ السلطان مناديا الحاجب الذى أتى مهرولاً..

قال الحاجب لنفسه إن جدران القاعة ستنهار فيما لو استمر السلطان على صراخه هذا.. هبط السلطان درجة مقتربا من الحاجب مشيرا بأصبعه إلى وجهه حتى كاد أن يفقأ إحدى عينيه: اطلب رئيس الحرس.. الآن.. هيا.

– أمر مولاى.. أمر مولاى

قالها الحاجب مذعورا فيما هو يخرج بظهره

فى ديوانه بالمبنى الملحق بالقصر جلس رئيس الحرس يقطع بكلتى يديه لحم الحمل المشوى فيما هو يكبش من الأرز المطبوخ بقطع الكبد المشوى والزبيب واللوز والجوز عندما سمع خبطات الحاجب المذعورة متسارعة على بابه..

صاح رئيس الحرس من خلف مائدته: ماذا تريد يا طارق النحس؟

رد الحاجب: افتح أولا.

قال رئيس الحرس فى لا مبالاة: عرفتك أيها الحاجب من خبطاتك الملهوفة.. لن افتح حتى أعرف أى طائر شؤم أرسلك فى هذه الساعة..

لم يجد الحاجب بداً من التصريح.. تلفت حوله خائفاً ثم قرب فمه من خشب الباب قائلا بصوت مبحوح: السلطان يطلبك!

- ماذا؟!

قال رئيس الحرس وقد توقفت كفاه عن تمزيق لحم الحمل المصروع.

كرر الحاجب بصوت جعله أكثر ارتفاعا هذه المرة: السلطان يريدك الآن.. وحالا..

أضاف كمن يحذره: أسرع فهو فى غاية الغضب.. يبدو أن الأمر عاجل وخطير.

هب رئيس الحرس واقفا فسقط المقعد بعيدا ثم أسرع يجرى داخلا ليضع شيئا من الملابس فوق جسده نصف العارى.. ثم توقف فى منتصف الغرفة ليجرى نحو الباب بفتحه للحاجب الذى ما إن رأى مائدة الطعام حتى أسرع نحوها مائلا فوقها يخطف ما تصل إليه يداه.

نظر إليه رئيس الحرس نظرة النمر إلى فريسة سقطت عليها جوارح الطير.. لكنه لم يتوقف طويلا.. غاب قليلا فى الداخل ثم عاد يمسح فمه ويديه بمنديل دسه فى جيبه ومضى مهرولا يسحب خلفه الحاجب الذى كان مايزال يمضغ فى فمه بقية من طعام !!

على رخام ممرات القصر الطويلة كانت أقدام الحاجب ورئيس الحرس الأربعة تتسابق للقاء السلطان.

أمام باب القاعة تقدم الحاجب مشيرا إلى صاحبه أن ينتظر خلفه ثم دخل يعلن وصول رئيس الحرس. أشار له السلطان بالانصراف فخرج يشير لرئيس الحرس بالدخول. تجشأ الرجل وهو يمرر أصابعه على شاربه يسويه ثم اعتدل ينفخ صدره ومضى داخلا بخطوة واثقة حتى صار فى مواجهة

مولاه.. انحنى رئيس الحرس ثم قام قائلا بصوت زاد فيه ضخامة: أمر مولاى..

وضع السلطان كفه فوق كتف رئيس الحرس الذى أحس بغبطة شديدة وأنه مازال موضع تقدير وتكريم وعطف مولاه.

قال السلطان: اسمع

هز رئيس الحرس رأسه قائلا بصوت مطيع: أمر مولاى.

قال السلطان بنفس النبرة الآمرة: خذ جماعة من جنودك وضباطك إلى العنوان الذى سأعطيه لك لتقبض على بنت اسمها نورالصباح أريدها هنا أمامى.. ثم مشيراً إلى الأرض: راكعة تحت قدمى.. فهمت؟!

قال رئيس الحرس وهو مازال ينظر إلى حيث أشارا السلطان: فهمت يا مولاى.

صفق السلطان مؤذنا له بالانصراف لكن رئيس الحرس لم يتحرك!!

سأله السلطان مستحثا الرجل: فيم انتظارك.. هيا.

قال رئيس الحرس وقد بدت عليه بلادة شديدة: لكن يا مولاى.. الأمر أننى.. أنا.. يعنى.. انتظر أمر القبض مكتوباً من القاضى.

أحس السلطان بالنار تشتعل فى جسده. قال: أنا السلطان أيها الحمار.. ألا تفهم؟!

هز رئيس الحرس رأسه وقد بدت له المسألة أشد تعقيدا من قدرته على أن يفهم.

نعم يا مولاى.. أنت السلطان أيها الـ .. نجم الذى يسطع فى سماء حياتنا لكننا.. عفوك يا مولاى.. هذا نظام تسير عليه السلطنة منذ مئات السنين..أسلاف...

أضاف وكل جسده يرتعش: منذ عهد أسلافك العظام يا مولاى..

صرخ السلطان وكل جسمه ينتفض: أخرج.. يالله.. لا أريدك هنا.. أغرب عن وجههى فورا أيها الأحمق.

تراجع رئيس الحرس بظهره متمتما كالمعتذر: وماذا كنت أقول للقاضى يا مولاى لو سألنى.. مالى أنا ومسائل الشرع والحكم هذه..

استوقفه السلطان باشارة آمرة من يده: ماذا كنت تقول أيها المأفون؟

قال رئيس الحرس ووجهه للأراض: مهمتى هنا يا مولاى أن أحرس مولاى من أعدائه.. فهل نور الصباح هذه من أعداء مولاى؟

قال السلطان صارخا بكل ما تبقى فيه من طاقة على الصراخ: أخرج.. أخرج.. لا أريد أحدا منكم هنا.

على صوت صراخ السلطان دخل الحاجب مهرولا وفى ذهنه أن السلطنة كلها لابد تسمع الآن صرخات السلطان.

كان السلطان جالسا فوق عرشه وكل جسمه ينتفض يردد كمن يكلم نفسه: لابد من وضع حد لهذه المهزلة.. سأقتلهم جميعا.. سأريهم كيف يكون العذاب لمن يعصى أوامر السلطان..

راح الحاجب يتصور شكل رئيس الحرس بشاربه وكرشه الضخم ورأسه المحلوقة وقد ربطوه من قدميه خلف جواد عفى يجرى به فوق الأرض

الجبلية بينما رئيس الحرس يتخبط على الضمور كجوال ممتلىء يتدحرج فوق الأرض.. وتصور لو أنهم وضعوه أيضا فى جوال أحكموا ربطه ثم ألقوه فى ماء النهر المندفع نحو الشلال.. لكنه ارتعد للفكرتين!

رفع السلطان رأسه قائلا وهو يضغط على كل حرف: أريد رئيس الشرطة السرية هنا.. الآن.. مفهوم!!

أطل الحاجب برأسه المرتعدة من خلف الستر.. هز رأسه وهو ينسحب خارجا قائلا لنفسه إن السلطان لابد قد جن!!

سأل نفسه: من هى نور الصباح هذه التى تشعل رأس موالانا وترجه بالرغبة والغضب إلى هذا الحد؟! إن كانت بارعة الجمال.. مثيرة.. صارخة الفتنة فإن عند مولاى من مثلها عشرات.. لا يا ربى.. بل مئات.. إن كانت صاحبة موهبة كالرقص أو الغناء.. فهن فى حريم مولاى كثيرات.. روميات وفارسيات وتركيات وحبشيات.. بيض وسود وصفر وحمر!!

أحس الحاجب أن فى المسألة سراً لا يفهمه.. هز رأسه مندهشا يقول لنفسه: مالى أنا وشئون الحكم ونزوات السلاطين وجنونهم ثم أسرع قاصدا دار آمر الشرطة لعله بهذا يضع حدا لمصيبة يمكن أن تنفجر..

عند دار آمر الشرطة كان المشهد غريبا.. توقف الحاجب يتأمل المشهد.. أدار عينيه حوله قبل أن يترجل من فوق جواده ثم سرح يفكر.. هل يمكن أن ؟! أسرع نازلا يعدو إلى فوق.. أفسح له الحارس ليدخل.. قال الحاجب من بين أنفاسه المتقطعة من أثر قفزه فوق درجات الدار مشيرا إلى آمر الشرطة السرية: بسرعة.. هيا معى ولا تبطىء.. السلطان يريدك.. لكنه توقف فجأة كالمصعوق أمام ما يرى.. آه.. قال الحاجب لنفسه.. هكذا إذن..

وهذا يفسر ما رأيته سفل الدار.. كل هذه الخيول وفصيلة جند الجيش وحرس القصر السلطانى وشرطة البلاد والشرطة السريون وكتبه ديوان القاضى.. أنهم جميعا هنا.. تدارك الحاجب الموقف بسرعة وقال منحنياً باحترام مبالغ فيه: السلام عليكم يا رجال دولتنا الأكابر..

فجاءه رد الجميع كدمدمة شلال يسقط من فوق الجبال..

أسرع الرجل داخلا فى زمرتهم كمن يحتمى بهم قائلا فى صوت كهمس الناصح الأمين: لكن أحبائى وأصدقائى ألاتخشون غضب السلطان إن علم باجتماعكم هنا.. استطرد هامسا فى صوت كالفحيح: لو علم مولاى بما يحدث هنا فربما أصدر أمره لرئيس الشرطة أن.. لكنه لم يكمل فقد جاء صوت آمر الشرطة محذراً: ولمن جئت إذن يا حبيب مولاك؟!

قال الحاجب مستدركا: آه نسيت هذه والله.. أنتم السبب فقد صعقنى اجتماعكم هذا هنا.. أقصد أن أقول إنه ربما يأتى قائد جيوش السلطنة بفرقة من جندة فيحملكم جميعا إلى أعواد المشانق.

كهزيم الرعد جاءه صوت قائد الجيوش: هل ينادينى سيدى حاجب السلطان؟!

لطم الحاجب خديه يائسا وهو يقول: والله لا أدرى ماذا أقول.. إنه الخوف يا أحبائى الذى تربيت عليه داخل قصر مولاى منذ عهد والده وجده.. إنه خوف نرثه مع الوظيفة.

أضاف وهو يدور بيتهم: سامحونى.. إنما كنت أخشى عليكم من غضب السلطان.

قال الجميع فى صوت واحد: نحن غضب السلطان.. لا بل نحن كنا غضب السلطان.. نحن الآن غضب الناس.. وغضب أنفسنا وكبرياء نور الصباح التى يريدها السلطان وترفضه.. ونرفضه نحن أيضا.

قال الحاجب وهو يقلدهم: وماذا بعد أن «نرفض نحن أيضا» ؟!

تقدم قائد الجيوش خطوة للأمام قائلا: سأذهب إليه أعلنه برأى الجماعة فإن انصاع وأبطل هذه المهزلة وإلا.. ثم كورّ قبضته كمن يقبض على حشرة تطير فى الهواء..

قاطعه آمر الشرطة قائلا بثقة: دع عنك هذا يا صاحبى فإن أمامك مسئوليات أشد جسامة هناك على الجبهة بين جنودك.. أضاف فى هدوء: دع هذا لنا نحن رجال الداخل.. ثم استطرد موجها كلامه للحاجب: ستحمله الشرطة إلى حيث يستحق.. إلى السجن الذى طالما القى فيه من أبناء هذا الوطن.. وليذق يوما طعم ما يأكل شعبه.. أليس يحب شعبه.. فليأكل من طعامه إذن.

صرخ الحاجب وقد ارتج عليه قائلا كمن يغرق: ولكن الوزير.. والقاضى!!

قال الوزير والقاضى فى صوت واحد: من ينادينا؟!

توقف الحاجب مفكرا يهرش رأسه.. ثم دفع عمامته إلى الأمام حتى سقطت فوق حاجبه قائلا بعد أن عادت إلى وجهه ابتسامته المذعورة التى كانت قد فرت منه: مادام الأمر كذلك فأنا معكم فإن عندى كلاما كثيرا

أريد أن أقوله للسلطان كان خوفى يمنعنى من نطقه وأظن أن قد آن الأوان الآن لأفتح باب القفص لعصافير كلامى كى تعانق الحرية وترفرف أجنحتها فى نسيمها الذى كدت أن أنساه..

●●●

من أحد أبواب القصر الخلفية كان جواد السلطان يركض بعيداً نحو الأفق.. وقد حمل فوق ظهره سلطانا خائفا يسابق الريح إلى المجهول.

كانت الشوارع والحارات والميادين قد بدأت تمتلىء بالرجال والنساء والأطفال يتبادلون فيما بينهم نظرات تتعانق فيها الفرحة بالدهشة مع الخوف لكنهم ومع ارتفاع الشمس ارتفعت بينهم حرارة الرغبة فى أن يصدقوا أن اليوم يمكن أن يكون مختلفا عن الأمس.. وكل أمس مضى.

من بعيد أشرقت نور الصباح فى ثوب شديد البياض راح يهفهف مع نسمات الصبح الجديد.. بأطراف أناملها رفعت ثوبها فوق قدميها ثم راحت تهبط كعروس فى ليلة عرسها إلى حيث الناس يهزجون ويرقصون..

توسطت نور الصباح الدائرة وأحساس عارم بالنشوة يهدر داخلها ثم راحت بحماس شديد تشارك الناس رقصتهم الجديدة.

منتصباً فى كبرياء وقف
أمامها يشد قامته.. رفع
وجهه إليها.. قال وهو
يضغط على كل حرف
يخرج من بين أسنانه:
حياتنا هنا.. ستولد هنا..
وهنا نموت..

في الوقت
متسع للبكاء

فى الوقت متسع للبكاء

كخطفة الومض عبرت الفكرة رأسه .. فتح النافذة ومال بجسمه للخارج.

كانت هناك كشجرة سنط عارية تقف فى الخلاء المريع من حولها .. شامخة لاتعرف الخوف الذى يملأ فراغ نفسة الآن..

همّ يفتح الباب ليهبط من العربة . الرمال تحت قدميه رطبة رطوبة بطء الليل الساكت من حوله .

من فوق .. من قمة غرورها العالى أطلت عليه .. لأبد أنها تراه الآن قزما تافها يحزن حزنا تافها فى مكان لا تعبر به أفراح أو أحزان..

فى جوف الليل سار خطوات لايعرف عددها ثم انحدر هابطا مع التل ليستدير من حوله . لاح له البحر من بعيد مساحات من خيال مجنون مكابر يضيق باختناقات الحصار ولا يرفض أن تركب ظهره السفن ذاهبة أو آيبة .. تلك الدمى التى تعبره متناثرة كبقع المرض على سطحه لامع الكبرياء رغم كل شئ .. المرتعش أبدا بنشوة السيطرة وارتجافات لذة الجبروت الذى لا يعرف الرحمة.

التفت ينظر إليها .. كانت هناك ما تزال .. عنيدة وقوية .. باطشة الصلف كما وقعت عيناه عليها أول مرة .. لم ترفع عينيها من علية منذ تلك اللحظة التى تلاقت عيونهما فيها .. انحنى يكبش حفنة من الرمل الرطب طوحها نحوها .. طار الرمل مسافة ثم سقط فى صمت . إبتسم .. ثم بدأ جسمة يهتز مستجيبا لرغبة فى الضحك راحت تزداد داخلة. رفع وجهة إليها ..أشار نحوها صارخا : باردة أنت لا تحسين وما تزال ثلوج أنهار حبك ترفض أن تذوب تحت وابل دفء حبى الذى لم يتوقف ولم يكف..

فى الفضاء المتكاثف من حوله راح صوتهيتبدد متتابعا : لا تعلمين أنت ما أنا فيه اليوم.. وماذا يهمك أنت يا قطعة الحديد الخرساء المتكبرة ؟..

تسخرين من ضعف بشريتى لأنى أملك أعصابا تحت أدمة جلدى .. ولأن لى عقل يفكر .. تجوس فيه الوساوس وتدوم فيه همهمات رياح المخاوف ..مشاعرى تخنقنى فلا أستطيع الاستمرار فى المقاومة ولا أقوى على مواصلة العناد..

لان صوتة ..

أريد أن أبكى الأن فهل تسمحين ؟!.. لهذا جئت إلى هنا .إليك .. اتوارى منهم .. أمام كبريائك لا أخجل .. سأبكى لكن قولى أى شئ .. أحبك وأشعر أنك ربما تحبيننى يوما..لهذا كنت أحكى لك قلبى وعقلى كل ليلة بعدما يهجع الصخب ويرقد الفضاء الحائر من حولنا مستسلما لو طأة الليل المتربص بنا.. لكنه فى النهاية يتكوم نائما ينتظر طلة الشمس الصباحية على الدنيا من شرفتها السماوية العالية .. هناك فوق .. فى البعيد .. وكنت أقرأ عليك سطورا من نبض روحى.. كتبتها أناملها فى لحظات

صفاء عاشق لم تدنسه الظنون ولم يعرف طعم جراح الفراق .. كنت أقرأ من سطور كلماتها عليك فتطوف بصفحة وجهك نسمات من عطرها المسافر دوما في ضميرى ..

أعتدل ثم أخرج من جيبة رسالتها: سأقرأ عليك سطرا أو سطرين من رسالتها الأخيرة لعلك تسامحين جهامتى اليوم..

«إنتظار ولامطر.. أحترقت خضرة الزرع وماتت الحياة .. سأعبر البحر إلى حيث أرض الخضرة الدائمة .. سأدير ظهرى لسنوات حبالى باليأس واللا جدوى فهل يمكن أن تفعل شيئا فلا أمل فى صبح يولد ميتا فى كل يوم!!»

هز الرسالة فى يده.. كورها بين أصابعة ثم طوحها بعيداطارت ثم سقطت متدحرجةأمامه حتى سكنت فاسرع وراءها منحنيا يلتقطها يضمها إلى صدره ويبكى.. طواها بعنايةثم دسها فى جيبة..

منتصبا فى كبرياء وقف أمامها يشد قامتة .. رفع وجهة إليها .. قال وهو يضغط على كل حرف يخرج من بين أسنانه : حياتنا هنا .. ستولد هنا .. وهنا نموت ..

أستدار يعطيها ظهره منصرفا فيما كانت الشمس تغادر قصرها الغربى لتبدأ من جديد رحلتها من قصر الشرق فأنسحبت جحافل الظلام المنهزمة موجات تبددها خيوط الصباح المنتصرة الزاحفة من بعيد..

....

....

مع خيوط الصبح كان يستقل سيارة الشركة مواصلا رحلته نحوها .. تحسس الرسالة فى جيبه .. أطل من النافذة ينظر إلى البريمة القابعة هناك فوق تبة الموقع كشجرة سنط عجوز تحرس المكان .. لوح لها مبتسما .. ابتسمت له .. رفع إبهامة علامة على الانتصار .. غمزلها فى مرح ثم أعتدل فى مقعده عاقدا ذراعية فوق صدره يتنفس فى عمق..

أدار محرك السيارة مندفعا بها إلى هناك فيما راح جسده يهتز مع اهتزازات السيارة .. سدد عينيه إلى البعيد.. أغمضهما لحظات مستسلما لنسمة هواء باردة راحت تطوف بوجهة.. فتح عينية ثم مال برأسه يسنده إلى حديد النافذة إلى يساره وقد راح الخدر يسرى فى كل جسمه فأحس براحة غابت عنه طويلاً.. قد بدأت الآن تعود إليه ..

عندما نامت الشوارع والحواري سمعت صوت قدمين على درجات السلم. أسرعت إلى المرآة.. نظرت إلى وجهها ولملمت شعرها.

هو يحكي.. هي تسمع!

١ـ اقبال..

١ـ اقبال..

جاءت اقبال ووضعت الطست أمام الكنبة التى يجلس فوقها عباس. شمر عباس جلبابه ثم رفع قدمه اليمنى ووضعها فى الماء الدافئ . راحت أقبال تصب الماء من الأبريق النحاس على قدمة.. للماء دغدغة تلعب بأعصابة وتبعث الخدر فى كل جسمه . رفع قدمه اليسرى ووضعها إلى جوار اليمنى. وضعت أقبال الأبريق جانبا وراحت تدعك قدميه واحدة بعد واحدة وتمر بأصابعها الناعمة بين أصابع قدمية فتسرى فى كل جسمه موجات من السعادة ترتعش فى عروقة . يبتسم عباس فى رضى ويضع كفه الكبيرة على رأس اقبال ثم يمسح فوق شعرها.

ترفع أقبال إليه عينين مبتهلتين تدعوان له . تطوف بعينيها تمسح وجهه الحنون . مهموم . تعرفه عندما يكون مشغولاً ومهموما . يطرق بعينيه العسليتين وترى تلك التجعيدة بينهما فتعرف أن الأفكار تلعب داخل رأسه وتسحب من عينيه تلك النظرة الحلوة التى تحبها..

عندما تنفس الصبح كان عباس فوق السجادة يصلى . أسرعت أقبال تضع البراد فوق النار . يحب عباس أن يشرب الشاى بالنعناع من يدها .

قطعتان من السكر يا اقبال . لإسمها بين شفتيه رنة مختلفه . كأنه يناديها من الجنة . تحب اسمها بصوتة . أنهى عباس صلاتة وسلم . صبت اقبال الشاى وجلست تنتظر . طال أنتظارها حتى سمعت صوت الباب وهو ينغلق خلفه . أسرعت إلى المشربية . رأته يسير وحيداً فى الشارع. تمنت لو أنه يلتفت خلفه لترى وجهه. تريد أن تنادى عليه . تسأله لماذا لم يشرب معها الشاى . هل أغضبته ؟ لا تذكر لكن ربما . من يدرى . ستسأله عندما يعود . سيعبس فى وجهها لحظه لكنه لن يقاوم أبتسامتها. تحبه . سيبتسم ثم يغرق فى الضحك ويعود وجهه الطيب كما كان . أنزلت الشيش وشعرت فى قلبها بغصة وخوف غريب راح بتسلل إليه وينتشر فيه.

عندما نامت الشوارع والحوارى سمعت صوت قدمية على درجات السلم . أسرعت إلى المرآة . نظرت إلى وجهها ولملمت شعرها . هكذا يحبه. قرصت خديها. صبت فى كفها نقطتين من زجاجة الفلوردامور التى أحضرها لها فى عيد ميلادها .. دعكت كفيها ثم أسرعت تفتح الباب .

«سا الخير يا اقبال» . قالها بأقتضاب باردة ومتعبة . ردت متهللة وكلها أمل: يسعد مساك يا سى عباس ثم سألته: أحط لك تتعشى ؟ كانت تمنى نفسها أن تضع عشاء له ولها وهى تخدمه وتناوله من يدها ما تختاره من الطعام ليأكله . تحس أنه ابنها فى تلك اللحظات . تسعدها وتلاعب قلبها نظرات عينيه الطفلتان وكلماته لها من فمه الممتلئ بحنانها وطعامها. مع الشاى سيسمران وتمتد بينهما السهرة هو يحكى وهى تسمع . حكى لها مرة عن سعد باشا وعدلى يكن وحكى لها عن صدقى والنقراشى وقال مرة والغضب يرجه أن المجرمين فتحوا الكوبرى على التلامذة وضربوا على

ايديهم ليسقطوا فى الماء من فوق كوبرى عباس . لم تسأله من هم المجرمون لكنها سألت : حد مات لنا ؟ قال وهو يسدد عينيه فى عينيها بقوة: أهلنا دول يا أقبال .. أهلنا! فأمنت على كلامه قائلة وهى تهز رأسها : طبعا يا خويا طبعا .. أهلنا!

تأخر رده فكررت وهى تدخل غرفة النوم خلفه لتساعده فى خلع ملابسه : أحط لك تتعشى يا خويا ؟

«ماليش نفس» .. جاءت كالصفعة فوق وجهها . قال بعد لحظه : أعملى لى فنجال قهوة . عايزك فى كلمتين!

هل تفرح أم تخاف أم تحزن ! كلمتان اثنتان فقط ؟ الآن ؟ وفيم يا ترى ؟ صفرت رياح الهواجس فى رأسها . أستر يارب . حاضر يا خويا قالتها وهى تخرج إلى المطبخ . يرتفع البن فى الكنكة فوق ظهر الماء فتنظر إليه وتراه أشبه بالوسواس الذى يرتفع داخلها فى هذه اللحظه . رفعت الكنكة وأطفأت السبرتاية ثم صبت القهوة فى الفنجان ووضعت معه كوب الماء وحملتها على الصينية إلى الفسحة حيث يجلس لابساً جلبابه النظيف الذى طوته له بعناية وبخرتة بالمستكه والجاوى قبل أن تضعه فى دولاب ملابسه .

على الوسادتين الفاصلتين بينها وبينه فوق الكنبة وضعت صينية القهوة بعناية ثم سألته قبل أن تجلس : أقعد جنبك ياخويا ولا قدامك على السجادة؟ رفع عينيه إليها ولم يتكلم فظلت واقفه . أشار اليها أن تجلس بجانبة فجلست . رفع الفنجان إلى فمه . نظر فى عينيها فنكست رأسها فى حجرها . رفع وجهها إليه . كانت عيناه ممتلئتان دموعاً.

ارتعش صوته . قال : يريدون الولد يا اقبال . خفق قلبها . توجست . تكاد تعرف ماذا يريد أن يقول . ضم رأسها إليه . أحست انفاسه فوق شعرها وسرت حرارتة اليها . تموت ولا تراه يبكى . سمعت صوته المبلل بالدموع يقول : يريدون أن أتزوج من أجل الولد يا اقبال وأن أطلقك . ضمها إليه بشدة : لن أطلقك يا اقبال .. لن أطلقك .. ثم أنهار يبكى . أرتمت فوق كفيه تقبلهما . .

....

أطلت الشمس برأسها من فوق النخيل فى البر الشرقى . كانت اقبال قد وضعت رأسها فوق الوسائد ونامت فوق الكنبة . نهض عباس يفتح النافذة فدخل ضوء الصبح يفرش مستطيلا داخل الغرفة .

وقف عباس أمام قفص اليمامة التى رباها صغيرة . نظر إليها طويلا ثم فتح لها باب القفص واستدار راجعاً يغطى اقبال النائمة قبل أن يخرج ..

صوتها حلو.. قالت إقبال
لنفسها وتمنت أن تكون
عشرتها أيضاً حلوة

هو يحكي.. هي تسمع!

٢ ـ حكمت..

٢ ـ حكمت..

.. وجاءت حكمت

جلس عباس عاريا تماما على كرسى المطبخ الذى وضعته حكمت فى وسط طست الغسيل .. كان ساكناً ومستسلماً وهى تدعك رأسه بالليفة فتسيل رغاوى الصابون لتغطى وجهه وعينيه.

دارت حكمت تدعك جسم عباس بالليفة فوق رقبته وظهره ثم تميل لتملأ كوز الصفيح بالماء الساخن من الصفيحة الممتلئة لتصب فوق رأسه. يضحك عباس منتشيا ويركع سعيداً بزوجته الجديدة فى أول ليلة زواج. مدّ يده يمسك يدها الممسكة بالكوز ثم رفعها إلى فمه. سحبت حكمت كفها من كفه ببطء والقت بالكوز فى الصفيحة فطرطش الماء الساخن. التفت عباس اليها فناولته كفها مبتسمة تنظر فى عينيه. رفع عباس وجهه اليها ثم انحنى يطبع فى كفها قبلة طويلة..

....

....

سمعت اقبال أصوات أقدام حكمت وعباس فى الشقة الجديدة فوقها.. سمعتها فى الحمام وفى غرفة النوم.. ثم سمعت صوت قدمى حكمت فى المطبخ.. لابد أنها الآن تعدله وجبة ساخنة.. وربما أيضاً شراباً ساخنا وتذكرت أول ليلة فى زواجها منذ ثمانى سنوات..

وحدها فوق الكنبة جلست تتذكر.. ثنت ساقها تحتها ومالت تفتح النافذة على الشارع.. مازال الصبح بعيداً وفى الجو السعة برد وانفاسها تخرج من أنفها ساخنة وفى العينين تحتشد الدموع..

فى الحارة قط وحيد يتمسح بدكة عم بدوى الحلاق وعسكرى الدورية ينحنى يختبر أقفال الدكاكين وأقدام من بعيد تدب على بلاط الحارة وصوت يلقي تحية المساء على عسكرى الدورية باسمه فيأنيه الرد ودودا وحميماً فيقترب الرجل وتشتعل بين الرجلين سيجارتى آخر الليل..

من هذه النافذة رأتها.. لم تتبين ملامحها بالوضوح الذى يكفيها للحكم عليها.. على نور الكلوبات شاهدت كسمها.. ربماكانت نحيفة بعض الشئ.. ولكنها بدت أطول منها قليلا.. ربما.. نزلت من الحنطور بعد عباس الذى استلم ذراعها وسار بها إلى عتبة الباب ثم لوح للمهنئين.. وضم ذراعيه إلى صدره شاكرا واستدار داخلا بها إلى بئر السلم فسحبت أقبال شيش نافذتها وانحنت تبكى بحرقة..

كانت ليلة زفافها مختلفة ـ تذكرت ـ وسرحت بخيالها تعيد تجميع الصور.. فى الغرفة أعطت ظهرها لعباس حتى أحست بكفيه تخلعان عن رأسها الطرحة ثم بذراعيه تديران وجهها اليه وهى تسقط فى حضنه كما يسقط العصفور فى عشه بعد تعب مشوار يوم طويل..

وفى الحمام كانت قد أعدت له كل شئ.. سخنت الماء ووضعت الصابونة المعطرة فوق الكرسى إلى جوار الليفة وكوز الصفيح.. وعلقت الفوطة وراء الباب إلى جوار الجلباب المكوى والسروال والصدرية والقميص وطاقية رأسه .

دخل عباس الحمام واغلق وراءه الباب وذهبت هى إلى المطبخ تعدله كوبا كبيرا من شراب الزنجبيل بالمكسرات ثم حملته إلى صينية العشاء التى تركتها حماتها منذ العصر إلى جوار سريرهما.

أمام باب الحمام جلست اقبال تنتظر حتى خرج عباس حاملا جلبابه بين يديه. كانت المرة الأولى التى تراه فيها بملابسه الداخلية.. ساعدته على ارتداء جلبابه وسوته فوق جسده.. لبس عباس الطاقية فوق رأسه ومد ذراعه حول كتفها يضمها إليه عائدا بها إلى الغرفة..

كانت ليلة لا تنساها اقبال.. إلى جوار فراشه سهرت تنظر اليه.. كان نومه جميلا كما كان صحوه.. مدت أصابعها تمسح دمعتين سالت فوق خديها..

كان عم بيومى البقال يفتح دكانه.. استدار يلقى التحية على بعض جيرانه فى المحلات أمامه.. سرت فى الحارة حركة ودبت فيها الحياة.. ثم جاءت سيارة التوزيع لتلقى ربطة الجرائد فوق فرشة رمضان.. لابد أن فرهود الطعمجى فتح أبوابه الآن.. ستنتظر قليلا ثم تنزل لتشترى الجريدة التى يقرأها عباس وتشترى له ولعروسه بعض الطعام من الفول والفلافل وعجة البيض والباذنجان المقلى.. عندها بعض البطاطس ستقليها لهما مع

بعض الجبن الأبيض والرومى وستسخن لهما أربعة أرغفة بلدى وست بيضات مسلوقة وبرطمانا من عسل النحل تحملها جميعا فى صينيتها النحاس الكبيرة ثم تضعها أمام الباب وتنقر نقرتين لا اكثر فوق الشراعة وتسرع نازلة إلى شقتها تتسمع انفتاح الباب فى الشقة فوقها لتسحب بابها وتدخل مرتاحة أنها فعلت ما يرضى عباس..

سحبت اقبال طرحتها ووضعتها فوق رأسها ثم طوحتها حول رقبتها ومالت تبحث عن البنتوفلى تحت الكنبه ثم اعتدلت ومضت إلى باب الشقة تفتحه ثم تغلقه خلفها لتجد حكمت أمامها على السلم فى منتصف المسافة بين الدورين!!

التقت عيون المرأتين.. وترددت اقبال هل تدخل.. أم تلقى «الصباح» على حكمت أم تنتظر أن تبادر حكمت قبلها..

نظرت اقبال اليها.. تفرست فيها طويلا.. الآن تراها بوضوح لا شبهة فيه.. سألت نفسها هل هى أصغر منها قليلا؟ ربما كانت أشد نحافة مما تتصورت لكن فى وجهها طيبة وشقاوة طفولية.. هى أكثر بياً لا شك فى هذا لكن من قال أن البياض أجمل من السمار؟!

هى تعرف أن السمار نصف الجمال.. هكذا كان يقول لها عباس.. قال لها أيضاً أنه لولا سمرتها لما تزوجها.. أم لعله نسى الآن !!

فى نفس واحد تبادلت المرأتان التحية.. قالت اقبال ومازالت فى نفسها بعض المرارة: يا ندامتى.. عروستنا نازلة بدرى ليه فى صباحيتها ؟!

ردت حكمت: أجيب لسى عباس الجرنان..

صوتها حلو.. قالت اقبال لنفسها وتمنت أن تكون عشرتها أيضا حلوة!..

وقالت اقبال بشهامة حقيقية هذه المرة: أبداً لا يمكن.. ثم اتفقت المرأتان أخيراً على أن تنزلا إلى الشارع معاً.. وقالت اقبال لحكمت وهما تخطوان خارج البيت انها فرصة تتعرف فيها على المنطقة شارعاً شارعاً ودكاناً دكاناً فضحكت حكمت وقد بدأ توجسها يغادرها ومدت كفها تبحث عن كف اقبال فيما هي تهبط من البسطة إلى أرض الشارع..

ليال كثيرة مرت لم تر فيها اقبال وجه عباس.. كانت تسمع صوت اقدامه فى نزوله وصعوده.. وانتظرت كثيراً أن تتوقف القدمان أمام بابها.. وفكرت فى كل مرة أن تفتح الباب أمامه لعله يدخل.. لكن شيئاً داخلها مصحوب دائماً بدموعها كان يمنعها أن تفعل.

ثم جاء عباس.. كان يحمل طبقاً من حلوى الشام دخل ووضعه على المنضدة وراء الباب..

نظرت اقبال إلى عباس ثم إلى الطبق ولم تتكلم..

دخل عباس وخلع الجاكتة وعلقها على الشماعة. وسألها: فى فوطة فى الحمام؟ ردت اقبال من خلفه: استنى أجيب لك واحدة نضيفة. غسل عباس وجهه ويديه ومسح فوق شعره بالماء وعاد إليها وهو يجفف نفسه. سألته فى فتور: اتغديت؟ قال: لسه فسرحت داخلها نشوة فرحة قديمة أحست بها تعود لتدغدغ روحها. فى المطبخ وضعت الحلل فوق النار.

ناداها. حالاً جاية.. ثم اسرعت اليه. على الكنبة جلست مطرقة إلى جواره. نظر إليها فترة ثم مد أصابعه يرفع وجهها إليه..

كانت فى عينيها دموع. سألها: مالك يا اقبال؟ ناقصك حاجة؟ قالت بصوت مرتعش وضعت فيه كل رغبتها: ناقصنى إنت يا سى عباس! ثم عادت تطرق إلى الإرض من جديد. التفتت تتطلع إلى وجهه .. تريد أن تضع رأسه فى صدرها وتضمه بقوه. هبت واقفة تستأذن فى لهفة وهى تقول: يالهوى.. الحق الأكل اللى على النار! واسرعت الى المطبخ تمسح دموعها التى انهمرت تتسابق فوق خديها..

على السفرة لم تضع اقبال لقمة فى فمها.. تنبه عباس إلى سرحانها وحزنها. سألها فى قلق: فى إيه يا إقبال.. كلمينى..

أضاف وملعقة الأرز تهتز فى يده: أنا مش شرحت لك كل حاجة يا بنت الناس.. إيه اللى مزعلك بأه ؟!

انفجرت اقبال: صعب ده قوى ياسى عباس.. صعب.. ثم نهنهت .

قال عباس مطيباً خاطرها: الصبر يا اقبال.. البنت كويسة وبنت ناس.. والولد أو البنت.. اللى يجيبه ربنا يعنى حيبقى ابنك يرضه..

لا تتصور اقبال ما يقوله عباس.. ولا تستطيع أن تفهم كيف يمكن أن تشاركها فيه أمراة أخرى ولا كيف يمكن أن يكون أبناء حكمت أبناءها!! وتساءلت بينها وبين نفسها هل يطلب منها أن تنتظر ما تبقى من عمرها لتعرف بنفسها.. صعب!!

حبست دموعها وهى ترفع أطباق الطعام من فوق السفرة وقالت: طلقنى يا سى عباس واستريح منى..

لأ.. لأ.. صرخ عباس وهو يهب واقفاً.. حمل الأطباق منها وأعادها الى السفرة.. لأ .. ثم أمسك كفيها فى يديه وهو موشك على البكاء ونظر فى عينيها طويلا.. أطرقت اقبال إلى الأرض.. لاتقوى على النظر فى عينيه.. مد عباس ذراعية يطوقها.. ضمها اليه بشدة فاستكانت فى حضنه كيمامة تعود إلى عشها القديم.. واختلطت دموع عباس بكحل عينيها السايح فى دموعها فوق خدها..

....

....

فى الشارع وقف عباس ورفع رأسه يتظر إلى النافذتين المضاءتين فى بيته.. دس يده فى جيب بطانة جاكتته للمرة الأخيرة يتحسس الورقة قبل أن يصعد إلى فوق وسرح خياله فتصور اقبال جالسة فوق الكنبة وقد ثنت ساقها تحتها واعتمدت بذقتها فوق ذراعها على مساند الكنبة وقال فى نفسه انها ربما تراه الآن وابتسم.. أما حكمت فلعلها الآن فى المطبخ تغنى أمام الصوانى والحلل.. أولعها تمشط شعرها أمام مرأة التسريحة وربما تضع بعض العطر أيضا فى انتظاره

أخرج عباس يده من جيبه وتقدم داخلا يصعد السلالم.. أمام باب اقبال تمهل قليلا.. فكر لحظة ثم رفع يده وهم بالنقر على زجاج الشراعة بين فرجات الحديد المشغول بالدورانات اللينة والدوائر التى تحضنها المثلثات

والمربعات.. توقف عباس عندما لمح خيال اقبال المتظرة وراء الباب كأنها تهم بفتحه في أى لحظة.. تراجع عباس وقد شعر بغصة في قلبه لحزن اقبال وهى تتابع خطواته الصاعدة فوق إلى حكمت.. يعلم كم سيجرحها انصرافه من أمام بابها.. ويعلم أيضا كم يعذبها احساسها بكبريائها الجريح في لحظة كهذه لكن الألم الذى سببته له الورقة المطوية في جيبه يمنعه من مواجهتها الآن بالذات فماذا يمكن أن يقول لها؟! سيؤجل المواجهة إلى وقت لاحق وليصعد إلى حكمت التى يسمع في هذه اللحظة صوتها المرح وهى تدندن أغنية يحبها.. وتساءل عباس فيما هو يصعد ما تبقى من درجات إلى شقة حكمت هل سيحكى لها عن الورقة المطوية في جيبة أم سيسكت ولا يخبرها كما لم يخبر اقبال؟ وفكر للحظة أن يضع الورقة على الكمودينو إلى جوار السرير فتقرأ ها هى مصادفة ويوفر على نفسه مشقة المواجهة لكنه نفى الخاطر عن رأسه بسرعة...

....

....

لا يدرى عباس ماذا أصابه.. كان يحس آلام الدينا كلها في جسمه.. قال لحكمت انه مريض وانه لن يذهب إلى الشغل اليوم. دقت حكمت صدرها نشخللت اسارور الشبكة في معصمها وسألته: تعبان قوى يا خويا؟!

قال عباس أن كل جسمه يؤلمه ثم سعل، علقت حكمت بابتسامة مرحة: بسيطة ان شاء الله.. واستطردت وهى تفرد فوقه الغطاء: أهو.. تتورنى يوم والا يومين وتقوم زى الفل..

فى الليل زادت الحمى على عباس.. سمعته حكمت يردد اسم اقبال.. مالت عليه فى جزع تسأله. قال انه يريد اقبال. سحبت حكمت شالها ولفت به رأسها وكتفيها واسرعت ملهوفة تقفز السلالم إلى تحت..

طارت اقبال بخوف حقيقى إلى فوق.. رأسها عارية وعلى جسمها قميص نوم خفيف. مدت أصابعها تتحسس جبهته .. نار !! قالت وهى توشك على البكاء أنه لابد من حكيم. سألت حكمت غير مصدقة: فى نص الليل ؟!

قالت اقبال فى حسم: لازم وأوصت حكمت بأن تضع له كمادات الماء البارد والخل على جبهته حتى تعود وألاتنسى أن تدعك له جسمه بالكولونيا وحذرتها من تيارات الهواء ثم اسرعت إلى شقتها تخطف شا لها ومعطفاً لتخرج إلى ظلام الشوارع تبحث عن طبيب.

....

....

تعافى عباس.. وجلس واهنا خلف فرجة النافذة يراقب حركة الشمس على حوائط البيوت ويسرح بخياله مع الظل السارح فوق الرصيف والدكاكين والناس تروح وتجئ فى مشاهد لا يدرى كم بالضبط غاب عنها..

من باب الخروج أطلت اقبال ثم تبعتها حكمت بخطوة.. فى الظل المنسكب على جزء من الشارع لمح عباس ظلين لإمرأتين تعبران الشارع احداهما تسبق الثانية.. قال فى نفسه انهما حكمت واقبال وخمن انهما

لابد ذاهبتان إلى السوق وتساءل وهو يحاول تدقيق نظره المتعب بآثار المرض ترى من منها اقبال ومن حكمت وتذكر وهو يسترجع مشاهدهما معه انه لم يلاحظ حتى هذه اللحظة كيف تمشيان .. لكن لعبة التخمين أعجبته فقال إن الأولى التى تسبق لابد وان تكون اقبال فهى تعرف الشوارع والدكاكين والناس.. وتأكد من صدق تخمينه لما رآها تتكلم وتشير بيديها مع الخضرى والفكهانى والبقال ومن خلفها حكمت تتلقى كلماتها واشاراتها فتذهب إلى حيث أشارت لتعود فتريها ماذا فعلت وتنتظر رأيها فى سكون

تراجع عباس عن النافذة وقد ملأ المشهد عينيه.. واحس بالراحة تغمره.. ثم تمدد يفرد جسمه فوقه الكنبة وقد تأكد أن المرض يغادره وأنه يستقبل عافيته من جديد..

كنت أفكر كيف التقى فاتن حمامة لأخبرها بما عندي.. وانتظرت خلف السور في الليلة التالية والتي بعدها حتى جاءت العطلة ولم تحضر فاتن.

فاتن .. لاتعرف!

فاتن .. لاتعرف!

.. كان محمود المليجى يكسر الدرج بحثا عن المال والمصاغ .. فى عينيه يختبئ ذئب متربص. أين محسن سرحان لأخبره بما يفعل المليجى ليمنعه. ليته يضربه ويطرده من الحارة أيضاً. فاتن حمامة تعود مع فردوس محمد. طيبتان حسنتى النية. المليجى زوج فاتن يتظاهر بالتقوى والطيبة. يوهم الجميع بأنه يرعى مصالح الأسرة وأنه ما زال حزينا على صديقه الزوج السابق لفاتن الذى أغرقه هو بيديه فى نيل القناطر. أنا أعرف كل شئ. فاتن طيبة لا تعرف .. وأمها كذلك. محسن سرحان الطيب بدأ يشك لكنه يحتاج إلى الدليل. عندى أنا الدليل يا محسن.. قابلنى خلف السينما فى الأرض الفضاء وراء الشاشة الكبيرة. أنها نظيفة الأن وقد وضعوا فيها كشكاً عالياً أمام الونش. بالأمس رأيتهم يبنون سوراً حول الأرض. قال سيد الحرامى إن الكشك للممثلين يرتاحون فيه بعد التمثيل. يشربون الشاى والعصير ويبدلون ملابسهم قبل أن يعودوا إلى بيوتهم. والسور يا سيد؟ قال إنه لمنع الأولاد والمتسولين وكل من لا لزوم لهم الذين يضايقون الممثلين بالحاحهم وأسئلتهم.

لم أستطع أن أقابل محسن سرحان... ولا التقيت فاتن حمامة.. لابد

أنهما غادرا مبكرين قبل أن الحق بهما.. درت حول السينما.. كان الزحام شديدا .غافلت الحارس ودخلت من فتحة السور الخشبى. كان الكشك العالى مغلقاً مظلماً. انتظرت وانتظرت لكن فاتن لم تأت.. ولم يأت أحد من الممثلين. تأكدت من أنهم لابد قد غادروا بعد انتهاء الفيلم بسرعة.. ألح على السؤال أين ذهبت فاتن حمامة إذا كان بيتها هنا.. فى هذا الفيلم؟ وبدا السؤال مزعجاً.. هل لها بيت آخر. كنا جلوساً على الجسر فوق الترعة وقد أعطينا الطريق ظهورنا. كسر فوزى عقلة من القصب ناولها لى قائلا: أخى فى الثانوى يقول أن السينما صور وليست حقيقة. قال سيد الحرامى مقاطعا وهو يقذف مصاصة القصب إلى الماء المهتز تحت شمس شتاء ذلك اليوم: أنا رأيتهم بنفسى يدخلون الكشك. سألته: حتى المليجى اللص؟.. أضفت: أنا رأيته بكسر الدرج ويخرج صندوق المصاغ! أجاب سيد: لأ .. المليجى لأ.. لأنه يخاف من محسن سرحان. قلت متحديا: أنا سأقول لمحسن سرحان على كل شئ. استطردت وقد زاد حماسى: محسن سرحان نفسه لايعرف ما أعرفه ولكنه اكبر وأقوى ويستطيع أن يضرب المليجى ويطرده. قال فوزى مقاطعاً: المليجى مات فى آخر الفيلم.. أنا رأيته يسقط فى مغطس الماء المغلى ويموت. ضحك سيد الحرامى عاليا وهو ينفض التراب عن مؤخرته ويحمل حقيبته: ها ها ها ى.. يا بنى هذه سينما.. الممثلون لا يموتون.. سألنى وهو يعترض طريقى: لو كان المليجى مات كيف إذن سيمثل فى اليوم التالى؟! أضاف وهو يغمز بعينه ويهز رأسه: أنا دخلت الفيلم مرة ثانية مع خالى ورأيته.. كسر الدرج وسرق المصاغ وضربه محسن سرحان وغرقه فى المغطس..

نفسه الحكاية كل يوم.. يا أولاد هذا تمثيل وأكل عيش.. ثم يعود الممثلون في اليوم التالي ويلبسون في الكشك خلف السينما ليبدأوا الحكاية من جديد..

قاطعته: لكن المليجى حرامي ... وحرام أن يسرق فاتن حمامة.. ماذا فعلت له المسكينة ليذلها كل هذا الذل؟ لوحت بيدى مهدداً: لو أن محسن سرحان لن يضربه سأضربه أنا ما دامت حكاية المغطس هذه كلها تمثيل!!

مطينا على طريق الترعة عائدين إلى بيوتنا. وضع سيد الحرامي ذراعة فوق كتف فوزى وراح يحكى له. سمعت فوزى يهتف وهو يواجهس سيد قبل أن يواصل سيره: يعنى محسن سرحان يعرف وكلهم يعرفون. قلت مقاطعاً: لأ.. فاتن لا تعرف.. أنا سأخبرها بكل شئ حتى تذهب إلى المأذون وتطلب الطلاق.. علق سيد الحرامي ساخراً: وتتزوجها أنت أليس كذلك ؟! ها ها ها. وابتسم فوزى ثم قفز وراح يركل حجرا صغيرا أمامه إلى سيد الذى راح يتبادل ركله معه حتى نهاية الطريق.

كنت أفكر كيف التقى فاتن حمامة لأخبر بما عندى.. وانتظرت خلف السور في الليلة التالية والتى بعدها حتى جاءت العطلة ولم تحضر فاتن فقررت أن أسأل عن عنوان بيتها !!

....

....

في الفسحه بين الحصص جلست على الدكة في الشمس أحكى

كيف ذهبت إلى فاتن حمامة. وصفت لهم بيتها وحكيت كيف استقبلتنى فى الصالون الكبير وقلت انها سقتنى عصيراً للبرتقال لم أشرب مثله فى حياتى وأنها أيضاً أعطتنى كعكاً صغيرا من علبه كبيرة عليها رسوم كثيرة ملونة.

اتسعت الدائرة من حولنا. وتزاحم الأولاد من كل الفصول يسمعون الحكاية. قلت إن فاتن وضعت ذراعها فوق كتفى وأنها ضمتنى اليها وقبلتنى فوق رأسى وقالت أنها رأتنى فى السينما وسألتنى إن كنت لاحظت أنها كانت تبتسم عندما تقترب من مقاعد الصالة؟ هززت رأس والفرحة تطير بى فوق البيوت والناس وفصول المدرسة. رأيت الشوارع من فوق صغيرة والترعة التى إلى جوار مدرستنا والحقول حولها يجرى فيها الماء وتسير طيور مالك الحزين والهدهد والفتاح وراء محاريث الفلاحين فى حين تجتر الجواميس السوداء والبقر بنى اللون ما فى فمها من خضرة وترفع عيونها المدورة إلى فوق فترانى وتهز رأسها مبتسمة فى نشوة..

لفنى عطرها الهادئ فسرحت. سألتنى عن أسمى. قلت اننى جئت إليها لأحذرها مما يحيط بها من شر. قلت لها إننى رأيت محمود المليجى زوجها يكسر درجها ليسرق مصاغها والفلوس. شوحت بيدىّ ودرت فى الصالون أشرح وأحكى. قلت: إن كان محسن سرحان لن يفعل شيئاً لأنه طيب فأنا أعرف هؤلاء المجرمين وأعرف ألاعيبهم. أضفت مؤكدا وأنا أضغط على كل حرف: أنا رأيت زوجك الكذاب وهو يغرق زوجك السابق فى نيل القناطر ويضغط على رأسه ليغطس! خبطت فاتن صدرها بكفها فى خوف حقيقى وهى تقول: يا خبر.. يا خبر!! عبرت ابتسامة سريعة شفتيها

قبل أن تسألنى ماذا سأفعل؟ قلت إننى لو كنت أكبر لتزوجتها لكننى اقترحت أن تتزوج عماد حمدى فهو طيب بما يكفى وهو أيضا قوى ولديه سيارة يستطيع بها أن يتحرك بسرعة لينقذها عند اللزوم!

رن جرس التليفون فذهبت فاتن لترد. قالت معتذرة أن عندها ضيوفاً وأشارت نحوى مبتسمة. كنت اطالع صورتها المرسومة والمعلقة على الحائط.. كانت ترتدى فستانا أخضر اللون تغطى اكمامه ذراعيهاوقد أحاطت عنقها بعقد من حبات خطراء كبيرة ولمحت فى أصبع أحد كفيها خاتماً يزينه فص أخضراللون من نفس حبات العقد. وقفت فاتن إلى جوارى تشاهد صورتها. سألتنى وهى ترفع وجهى اليها: عجبتك؟ قلت: جداً. دخلت فتاة تحمل علبة من الصينى أشارت إليها فوضعت العلبة. فتحت فاتن العلبه وهى تجلس ثم أجلستنى إلى جوارها وقدمت لى واحدة من بونبونى العلبة فوضعتها فى جيبى. قالت تطمئننى: فى فيلمى القادم.. ولم تكمل.. سألتنى إن كنت أشاهد أفلامها باستمرار؟ قلت: ليس دائما.. عندما ما يكتمل عند أمى ثمن التذاكر وتدور زفة الاعلان فى الشوارع عن عرض سينما بالاس ونراك فى صور الاعلان تعطينى أمى الفلوس فأذهب لأقطع التذاكر. ابتسمت فاتن فى سعادة وهى تكمل: فى فيلمى القادم سأتزوج عماد حمدى لكننى سأحتاجك. أشرت بأصبعى إلى عينى قائلا: اؤمرى.. قالت: فى فيلمى القادم يحاول فريد شوقى أن يؤذينى.. أضافت مؤكدة: بل هو سيؤذينى بالفعل فماذا ستفعل؟ قلت أطمئنها: دعى لى فريد شوقى. استدرت أو اجهها مكملا: أنا لا أخافه فأعرف متى ينوى الشر.. استطردت اشرح لها: عندما يرفع حاجبه الأيسر

هكذا احترسى منه ولا يخدعك كلامه حتى إن حلف لأنه يكذب! أمسكت فاتن ذراعى تهزنى قائلة: اذهب أنت الآن.. ثم شكرتنى فسألتها متى أراها؟ قالت وهى تودعنى عند الباب: فى السينما.. وسأبتسم لك عندما احتاجك.. لا تنس.. هذه اشارة بيننا.. سأقترب من مقاعد الصالة وابتسم لك فتفهم أننى ربما احتاجك.. ضمتنى إليها ثم قبلتنى فأسرعت أهبط السلالم إلى الشارع...

....

....

ضحك الأولاد فوقفت بينهم أتحداهم: اذا لم تصدقوا فتعالوا فى الفيلم القادم وسترون بأنفسكم كيف تبتسم لى وحدى!!

اشتد ضحكهم.. فخرجت من الدائرة المزدحمة حولى.. كان جرس الحصة يدق بشدة.. لم أسلم من غمزاتهم واشاراتهم نحوى باقى حصص اليوم لكننى فى طريق عودتى آخر النهار سرت وحدى مختصرا المسافة إلى البيت عبر سوق الجمال وعزبة الصعايدة.. توقفت لحظات أخرج من جيب سترتى الداخلى ورقة البونبونى المفضضة. تأملتها طويلا ثم أغمضت عينى أشم رائحتها.. أعدتها إلى جيبى بعناية ثم واصلت طريقى أفكر كيف يكون شكل فيلمها القادم..

من فوق حبال الغسيل
الخالية إلا من المشابك
أطلت سعدية فتأرجحت
فى الهواء خصلة من
شعرها اختلط فيها
الذهب بالليل.

فستان خروج!

فستان خروج!

في بئر السلم وقفت أنظر إلى فوق.. على حرف الدرابزين الخشبي كان يهبط سرسوب من ضوء واهن خارج من فتحة باب شقتها ومعه موجات من صوت فريد مختنقة بالشجن المغسول بالدموع تقول: ومهما تقسا عليا. ما أحملش منك أسية. تحت إبطي الأيسر لفة القماش الجديد تملأ رائحته أنفي وفي كفي الأيمن بريزتين وضعتهما أمي وأطبقت أصابعي عليهما توصيني أن أنتبه لهما جيداً. صعدت السلالم. في ستارة الضوء المشتبكة مع الظلام وتطير فيها ذرات الغبار الناعم التي يثيرها حذائي الكاوتش الأبيض الجديد.

في شق الباب المفتوح وضعت وجهي وناديت: خالتي سعدية.. خالتي سعدية. مع صوت اندفاع ماء صنبور فوق الأواني في الحوض جاءني صوتها: أيوه! في صوتها رنة فرح حزين وحزن مشتاق للفرح. حالا جاية!! فتصورت أنها لابد تجفف الآن يديها في جلبابها قبل أن تفتح الباب

دارت نصف جسمها خلف الباب وهي تفتحه وأطل وجهها المبتسم يدعوني للدخول: تعال يا حبيبي. تناولت لفة القماش من تحت ذراعي وراحت تفتحها ثم تنشر القماش بين ذراعيها وهي تفردهما إلى الأمام في

النور قائلة: الله.. مامتك ذوقها حلو قوى! ثم تستدير تحوى معابثة: مش مامتك برضه؟! قلت : أيوه فسألت: أنت ابن الست أم فتحى مش كده؟ لم اكن أعرف أم فتحى فهززت رأسى نفيا . استدركت بسرعة وهى تضع القماش: آه.. لا مؤاخذة.. إنت ابن الست ملك. خدت بالى من القماش. لا مؤاخذة!!

نظرت إلى كفى المطبقة على البريزتين ثم قالت تسألنى: تشرب معايا شاى؟ أضافت دون أن تنتظر اجابتى: انا لسه عامله شاى لنفسى.. اشرب معايا. قلت على الفور: لأ. قالت: يقطعنى ويقطع الشيطان اللى نسانى. أنا عندى بونبونى حلو قوى لسه جاى لى النهاردة ح أدى لك منه ثم راحت إلى منضدة كبيرة عليها لفائف قماش كثيرة بعضها مفتوح واخرجت من تحت احداها علبه من الصفيح الملون فتحتها لتكبش لى ملء كفها من البونبونى عادت لتدسها فى جيبى. تذكرت كفى المطبقة على البريزتين ففتحتها ورفعت كفى إليها قائلا: أمى تسلم عليكى وباعتالك الفلوس دى وتقول لك جلابية بيت. انحنت تقبلنى فوق عينى وتضمنى اليها قائلة بحنان: يا روحى.. ما اتحرمش.. اشكر لى الست مامتك قوى. فى ضمتها شممت رائحة صابونة معطرة تذكرت معها رائحة زهور مشاتل جنينة المدير صديق أبى التى كنا نذهب اليها كل فترة. تمنيت ألا تبتعد فيبتعد معها عطرها. عادت تمسك بالقماش بين يديها وهو تقول متحسرة: خسارة.. القماش حلو قوى.. أنا ح أعمله فستان بيت ينفع بيت وخروج!. أضافت وهى تمسح فوق شعرى: قل لما متك أنا ح أعمله قصة جديدة من عندى حتعجبها قوى. رفعت عينى إلى وجهها ثم استدرت خارجاً اسحب

الباب خلفى ورحت أهبط السلم وفى روحى مازال يسرح عطرها حين غمر المكان فجأة الضوء الصادر من شقتها .

من فوق السلم أطلت تنادينى : اسمع . فاستدرت انظر إليها . أشارت إلى باب الخروج وهى تقول : تعرف عمك عبده كبريت البقال .. ده؟ هززت رأسى فواصلت: قل له سعدية عاوزه لتر جاز وصابونة حمام وشاى وسكر.. اوعى تنسى. اضافت مستدركة: آه.. وقل له ما ينساش يبعت الغدا عشان مش ح أفضى أطبخ النهاردة !!

كان عم عبده غارق فى زحام فوضى دكانه بين العلب والصناديق. ناديت فخرج إلى من الظلام. ابلغته رسالة خالتى سعدية ففتح رف البنك خارجاً إلى نور الشارع. ادار ظهره لمحل العجلاتى خلفه وأطل صاحب محل الدقيق يتابع المشهد. رفع عم عبده رأسه إلى شقته فوق صائحا: سمك يا أم يسرا برضه؟! .. وكام عيش؟!

من فوق حبال الغسيل الخالية الا من المشابك أطلت سعدية فتأرجحت فى الهواء خصلة من شعرها اختلط فيها الذهب بالليل. قالت سعدية: اللى تشوفه ياسى عبده !! ابتسم الرجل ودخل يجمع لى طلباتها.

كنت سعيداً أننى سأرها مرة أخرى وأننى من جديد سأشم عطرها وربما أيضاً قبلتنى شاكرة. كنت أحمل داخلى كلاما كثيراً أردت أن أقوله لها.

من فتحة الباب الموارب مدت لى ذراعاً عارية لمعت فى معصمها اسورة من الكريستال، وأطل جزءمن وجههاوشعرها المبلول. تناولت لتر الجاز وكيس الطلبات ثم ابتسمت تشكرنى وتغلق الباب!

فى أحلامى كنت أراها.. جاءت إلى بيتنا يوماً وفى يدها فستان أمى. رفعته أمام وجهها ثم أمسكته على جسمها ودارت به دورة أمام أمى التى ابتسمت فى سعادة بالفستان. ثم رأيتها تجرى فى غبشة نور الفجر فى أرض فضاء يحيط بها شجر. توقفت تلتفت وراءها ثم أشارت لى أن أتبعها فعدوت خلفها لكننى لم ألحق بها ووجدت نوراً يسطع مكانها وسمعت صوتها ينادينى : إنت! فتلفت حولى أبحث عنها. عاد صوتها يقول: أيوه إنت !! أشرت باصبعى إلى نفسى متسائلا: أنا ؟! فجاءنى صوتها يقول: أيوه إنت !.. تشرب شاى معايا؟!

أياماً كثيرة تلح علىّ صورتها وراء الباب وقد مدت ذراعها العارية نحوى ولم يبد منها غير جزء من وجهها وشعرها المبلول. وفى المدرسة سرت إشاعة أن أم عباس الداية قتلت خياطة اسمها سعدية كانت تريد أن تسقط حملها . سألت عباس زميلى فى دكة الفصل: إنت أمك داية؟ فهز رأسه. واصلت سؤالى: وقتلت واحدة اسمها سعدية؟! التفت عباس نحوى مذعورا يكاد يبكى قائلا: لأ.. لأ.. أمى قالت لأ.. هم اللى قتلوها فى المستشفى لما سابوها تنزف لحد ما ماتت!!

فى داخلى فارت أمواج الحزن فأحسست أننى اغرق ولم أصدق أن سعدية يمكن أن تموت. امتلأت عيناى بالدموع وغامت الدنيا أمامى فانطلقت أعدو خارجاً من الفصل والمدرسة إلى الشوارع التى كانت تجرى بى إلى بيتها .. ظلام السلالم الصاعدة إلى شقتها كانت تضيئه القلوب التى أحبتها .. امتلأ السلم بالنساء لابسات السواد واندفعت أنا داخلا أبحث عنها.. كانت يسرا أمام الحوض تضع بعض الكيروسين فى وابور الجاز من علبة اللتر التى ناولتها يوما لسعدية..

كانت عيون النساء جميعا قد امتلأت دموعاً.. درت بعينى فيهن على أراها .. مدت أمى ذراعيها نحوى فاند فعت ارتمى فى حضنها . على الكنبة العالية جلست أم سعدية وقد عصبت رأسها.. فى عينيها كانت ترقد سعدية مسجاة فى هدوء. على شفتيها ابتسامة صامتة وقد استسلمت لحمام الدموع الذى راحت أمها تغسلها به كل فترة.

قالت أم سعدية ترد تعازى النسوة اللاتى غصت بهن الغرفة: مانجيلكوش فى حاجة وحشة يا ستات.. اللى لها فستان أو جلابية أو حتة قماش تقوم تاخدها!

فى البيت فردت أمى فستانها فوق السرير فصعدت فوق المرتبة أنظر اليه. كان كما رأيته فى الحلم تماما لكن المشهد لم يكن ينقصه الا سعدية وقد وقفت بيننا تفرده على جسمها وتبتسم!

في الليل عادت. نزلت على شريط النور. ابتسمت وهي تمد نحوي يدها. أخفيت يديّ خلف ظهري. بانت الدهشة في عينيها واتسعت وتحولت سؤالاً..

أبيض.. وأسود!

أبيض.. وأسود!

كانت تكشف شعرها وقد أدهشني هذا كثيراًس. عند مدخل الصيوان وقفت تنظر نحوى. نظرت إليها وراودنى شك فى أنها ربما لا تكون هى..

كنت أجلس إلى اليمين من الشيخ محمد الفيومى على بعد مقعدين من القانونجى مجمد عطية. نظر الشيخ الفيومى إلى محمد عطية بمودة شديدة وهو يتابع أصابعه التى تجرى على أوتار القانون.

صاح واحد من الجهمور «أعد يا شيخ محمد» ورد الفيومى «حاضر». ربت فوق كتف محمد عطية ثم رفع كفه إلى أذنه وراح يغنى والناس فى نشوة «علمتنى قولة الآه لأجل أقلها لك»..

قمت واقفاً فالتفت الشيخ نحوى. أشرت بوجهى ناحية مدخل الصيوان. فهم الفيومى الإشارة وهز رأسه فتركت مكانى خارجاً أبحث عنها. لم أجدها. فكرت فى العودة لكننى كنت قد سئمت الموضوع كله فانصرفت أخوض فى الحوارى المظلمة وقد طارت وحطت ودارت من حول رأسى أفكار كخفافيش الظلام.

فى الليل زارتنى . جاءت من سقف الغرفة. من زاويتها اليسرى نازلة على شريط من نور شديد السطوع. رفعت كفى فوق عينىّ أحجب النور

حتى أراها. مدت نحوى ذراعها فمددت نحوها ذراعى والتقت كفى بكفها. سرت خلفها حتى خرجنا إلى الفضاء الواسع. صامتة كانت وهكذا صمت أنا أيضاً. لم أشأ أن أسألها عن أبى. كنت منشغلاً بمتابعة المشاهد التى أراها حولى. لم تكن سماء الليل مظلمة كما تصورتها. أمام الباب الكبير فقدتها. بحثت عنها وسط الحشود الكثيفة من الناس لكننى لم أجدها. أصابنى رعب حقيقى فصرخت: أمى!

رن الصوت وتردد صداه كبيراً واسعاً لكن مخلوقاً لم يلتفت!

....

رفع الجميع رءوسهم نحوى عندما دخلت. نظرت إلى ساعتى كانت تشير إلى الحادية عشرة. غمز لى بعينه نحو باب الإدارة قائلاً «ادخل». أضاف بابتسامة يسيل منها الخبث «الريس يسأل عنك». لم أجلس إلى مكتبى. طوحت نظارتى الشمسية فوق الأوراق ومضيت إلى هناك. فى طريقى إليه مررت بمكتبها. مددت يدى أمسكت ذقنها بين الإبهام والسبابة ضاغطاً بشدة وأنا أقول بصوت خرج كالفحيح. ستأتين الليلة. مفهوم؟ ستأتين! قالت وهى تحاول تخليص وجهها: سأصرخ! تركتها ومضيت داخلا.

....

قلت إننى أرى أمى كثيراً هذه الأيام فى نومى وتساءلت هل يعنى هذا أننى سأموت؟!. قال وهو يرج النرد فى كفه قبل أن يلقيه «يا سيدى.. كلنا سنموت». عدل وضع خرطوم الشيشة بين فخذيه ساحباً نفساً عميقاً من

مبسمها أطلقه من فمه وفتحتى أنفه وهو يسعل. غمز بعينه مشيراً إلى امرأة كانت تقف على الطوار المقابل ثم سألنى مبتسماً فى خبث «ما رأيك؟». كانت المرأة تكشف شعرها. تأكدت هذه المرة أنها هى. أغلقت صندوق الطاولة بعنت وأسرعت أعبر الشارع إليها محاذراً من السيارات المارقة. لم تكن على الطوار ولا فى أى مكان قريب. أشار لى صاحبى أن أعود فلوحت بذراعى فى الهواء فى زهق عائداً إلى بيتى أغوص فى زحامس الشوارع والأضواء والبشر..

فى الليل عادت. نزلت على شريط النور. ابتسمت وهى تمدّ نحوى يدها. أخفيت يدىّ خلف ظهرى. بانت الدهشة فى عينيها واتسعت وتحولت سؤالاً. قلت معاتباً «لأنك تركتنى أمام الباب وحيداً وغريباً فى زحام بشر لا أعرفهم. قالت «تذكر جيداً. أنا لم اتركك. أنت الذى تركتنى ولم تأت خلفى لهذا جئت إليك الليلة فهيا ولا تضع الوقت». أضافت بلهفة «الليلة سيفتحون الباب».

اقتربت خطوة فتراجعت فى فراشى حتى التصقت بالحائط. نظرت إلى أعلا ونظرت خلفها ثم انطفأ شريط النور ولم تعد بعد ذلك. توقعت أن أراها واقفة على الطوار المواجه للمقهى وتمنيت ذلك لكنها أيضاً لم تأت. سحبت مقعداً لأجلس وفى فراغ رأسيس كان صوت الشيخ الفيومى يدور مغنياً «لك يا زمان العجب فى كل أحوالك». أشار صاحبى إلى عامل المقهى بطلب الطاولة والشيشة وفنجانين من القهوة المضبوطة. من راديو المقهى كانت أسمهان مازالت تصر على أن فينا روضة من الجنة. سألنيس صاحبى وهو يفتح الطاولة «ولم تعد منذ ذلك اليوم؟». قلت فى فتور «لم

تعد» ونظرت يائساً إلى الطوار المقابل. دهس بصقته فوق بلاط الرصيف قائلا وهو يومئ برأسه بعيداً «حتى تلك المرأة التى كانت تشير إليك من الطوار المقابل لم تعد تأتى هى أيضاً!!».

كنت أفتقدها بشدة ورحت أمنى نفسى بعودتها فى أى لحظة..

فاجأنى سؤاله وهو يرتب قشاط الطاولة «أبيض أم أسود؟». قلت دون تفكير «أى شيء.. أى شيء!!».

..وفى الختام

كل الشكر لهيئة محكمتى الأدبية والنقدية المشكلة من الأستاذة الدكتورة سلوى بهجت والأستاذة الدكتورة كرمة سامى اللتين وضعتانى وباستمرار بين قوسين من رعاية ومحبة.. أرجو ألا ترفع الجلسة!

سامى فريد

الفهرس